الدُّرَّة الفَاخِرَة
في
كَشْفِ عُلُومِ الآخِرَة

الدُّرَّة الفَاخِرَة
في
كَشْفِ عُلُومِ الآخِرَة

تأليف

حجة الإسلام ومفتي الأنام

الإمام أبي حامد الغزالي

رضي الله عنه وأرضاه

الناشر

المكتبة الأزهرية للتراث

٩ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر الشريف ت: ٥١٢٠٨٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م

حقوق الطبع محفوظة

٩ درب الأتراك ـ خلف الجامع الأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام العالم الأوحد حجة الإسلام مفتى الأمة أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى – قدس الله روحه ونور ضريحه آمين–:

الحمد لله الذى خص نفسه بالدوام، وحكم على من سواه بالانصرام، وجعل الموت حال أهل الكفر والإسلام، وفصل بعلمه بين تفاصيل الأحكام، وجعل حكم الآخرة خلفا للمعهود من الأيام، وأنهج ذلك لمن يشاء من خلقه أهل الإكرام، وصلى الله على سيدنا محمد رسول الملك العلام، وعلى آله وصحبه الذين اختصهم بجزيل الإنعام فى دار السلام.

أما بعد، فقد قال الله تعالى:﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ [آل عمران:١٨٥]، [الأنبياء:٣٥]، [العنكبوت:٥٧]، وثبت ذلك فى كتابه فى ثلاثة مواضع، وإنما أراد سبحانه وتعالى الموتات الثلاث للعالمين فالمتحيز إلى العالم الدنيوى يموت، والمتحيز إلى العالم الملكوتى يموت والمتحيز إلى العالم الجبروتى يموت.

فالأول آدم وذريته وجميع الحيوانات على ضروبه الثلاث والملكوتى وهو الثانى أصناف الملائكة والجن، وأما أهل الجبروتى فهم المصطفون من الملائكة، قال الله تعالى: ﴿**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ**﴾ [الحج:٧٥]، فهم كروبيون وروحانيون وحملة العرش وأصحاب سرادقات الجلال الذين وصفهم الله تعالى فى كتابه وأثنى عليهم حيث يقول: ﴿**وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ**

يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩-٢٠]، وهم أهل حضرة القدس المعنيون المنعوتون بقول الله تعالى: ﴿**لَّاتَّخَذْنَاهُ من لَّدُنَّا إن كُنَّا فَاعِلِينَ**﴾ [الأنبياء:١٧]، وهم يموتون على هذه المكانة من الله تعالى والقربى، ليس زلفاهم بمانعة لهم من الموت.

فأول ما أذكر لك عن الموت الدنيوى فألق أذنيك لتعى ما أورده وأصفه لك بنقل عن الانتقال من حال إلى حال إن كنت مصدقا بالله ورسوله واليوم الآخر؛ فإنى ما آتيك إلا ببينة يشهد الله تعالى على ما أقول، ويصدق مقالتى القرآن، وما صح من حديث رسول الله ﷺ.

فصل

لما قبض الله القبضتين اللتين قبضهما عندما مسح على ظهر ادم عليه السلام فكل ما جمعه فى جمعه الأول إنما جمع من شقه الأيمن وكل ما جمع فى الآخر إنما جمع من شقه الأيسر، ثم بسط قبضته سبحانه فنظر إليهم آدم فى راحتيه الكريمتين وهم أمثال الذر، ثم قال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالى، فهم بعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء إلى النار ولا أبالى فهم بعمل أهل النار يعملون، فقال آدم عليه السلام: يا رب وما عمل أهل النار؟ قال: الشرك بى وتكذيب رسلى وعصيان كتابى فى الأمر والنهى قال آدم عليه السلام: أشهدهم على أنفسهم عسى ألا يفعلوا، فأشهدهم على أنفسهم، ألست بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا، أو أشهد عليكم الملائكة وآدم انهم أقروا بربوبيته، ثم ردهم إلى مكانهم، وإنما كانوا أحياء نفسا من غير أجسام، فلما ردهم إلى صلب آدم عليه السلام أماتهم وقبض أرواحهم وجعلها عنده فى خزانة من خزائن العرش، فإذا سقطت النقطة المتعوسة أقرت فى الرحم حتى تمت صورتها والنفس فيها ميتة، فلجوهرها الملكوتى منعت الجسد من النتن، فإذا نفخ الله تعالى فيها الروح رد إليها سرها المقبوض منها الذى خبأه زماناً فى خزانة العرش فاضطرب المولود، فكم من مولود دب فى بطن أمه فربما سمعته الوالدة أو لم تسمعه فهذه موتة أولى وحياة ثانية.

فصل

ثم إن الله عز وجل أقامه فى الدنيا أيام حياته حتى استوفى أجلــه المحدود ورزقه المقدور وآثاره المكتوبة، فإذا دنت موتته وهــى الموتــة الدنيوية فحينئذ نزل عليه أربعة من الملائكة، ملك يجذب النفس من قدمه اليمنى، وملك يجذبها من قدمه اليسرى، وملك يجذبها مــن يــده اليمنــى وملك يجذبها من يده اليسرى، وربما كشف للميت عن الأمــر الملكــوتى قبل أن يغرغر فيعاين الملائكة على حقيقة عمله على ما يتحيزون إليــه من عالمهم فإن كان لسانه منطلقا تحدث بوجودهم فربما أعاد على نفســه الحديث بما رأى وظن أن ذلك من فعل الشيطان فسكن حتى يعقل لســانه وهم يجذبونها من أطراف البنان ورءوس الأصابع والنفس تنسل انســلال القذاة من السقاء والفاجر تنسل روحه كالسفود من الصوف المبلول.

هكذا حكى صاحب الشرع عليه الصلاة والسلام، والميت يظن أن بطنه ملئت شوكا كأنما نفسه تخرج من خرم إبرة، وكأنما السماء انطبقت على الأرض وهو بينهما ولهذا سئل كعب - رضــى الله عنــه - عــن الموت فقال: كغصن شوك أدخل فى جوف رجل فجذبه إنســان ذو قــوة فقطع ما قطع وأبقى ما أبقى.

وقال عليه الصلاة والسلام: «**لسكرة من سكرات الموت أشد مــن ثلاثمائة ضربة بالسيف فعندها يرشح جسده عرقا وتزور عيناه وتمتــد أرنبته، وترتفع أضلاعه، ويعلو نفسه ويصفر لونه**»، ولما عاينت عائشة رسول الله ﷺ فى هذه الحالة وهو مستلق فى حجرها وهى تكفكف الدمع جعلت تقول شعرا:

بنفسى أفــدى ماغصــك   من الهايعات وما توجع

وما مسك الجن من قبل ذا　　وما كنت ذا روعة تفزع

ومالى أنظر فـــى وجهــك　　كمثل الصباغ إذا ينقـــع

إذا شحب اللون من ميت　　فأنوار وجهك قد تسطع

فإذا احتضرت نفسه إلى القلب خرس لسانه عن النطق وما أحــد ينطق، والنفس مجموعة فى صدره لوجهين:

أحدهما: أن الأمر عظيم قد ضاق صدره بالنفس المجتمعة فيه، ألا ترى أن الإنسان إذا أصابته ضربة فى صدره بقى مدهوشاً، فتارة يــتكلم وتارة لا يقدر على الكلام، وكل مطعون يطعــن بصـــوت إلا مطعـــون الصدر فإنه يخر ميتا من غير تصويت.

وأما الآخر: فإن السر الذى فيه حركة الصـــوت المندفعـــة مـــن الحرارة الغريزية قد ذهب فصار نفسه متغير الحالتين، حـــال الارتفـــاع والبرودة لأنه فقد الحرارة فعند هذا الحال تختلف أحوال الموتى، فمـــنهم من يطعنه الملـــك حينئـــذ بحربـــة مســـمومة قـــد ســـقيت مـــن نـــار فتفر النفس وتفيض خارجة، فيأخذها فى يده وترعد أشبه شىء بـــالزئبق على قدر النحلة شخصاً إنسانياً، ثم الملائكة تناولها الزبانية، ومن الموتى من تحذف نفسه رويداً حتى تنحصر فى الحنجرة وليس يبقى فى الحنجرة إلا شعبة متصلة بالقلب، فحينئذ يطعنها بتلك الحربة الموصوفة فإن النفس لا تفارق القلب حتى يطعن، وسر تلك الحربة أنهـــا تغمـــس فـــى بحـــر الموت، فإذا وضعت على القلب صار سرها فى ســـائر الجســـد كالســـم الناقع، لأن سر الحياة إنما هو موضوع فى القلب ويؤثر سره فيـــه عنـــد النشأة الأولى، وقد قال بعض المتكلمين: الحياة غيـــر الـــنفس، ومعناهـــا اختلاط النفس بالجسد.

وعند استقرار النفس فى الترقى والارتفاع، يعرض عليه الفتن وذلك أن إبليس قد أنفذ أعوانه إلى هذا الإنسان خاصة، واستعملهم عليه ووكلهم به، فيأتون المرء وهو فى تلك الحال فيتمثلون له فى صورة من سلف من الأحباء الميتين الباغين له النصح فى دار الدنيا كالأب والأم والأخ والأخت والصديق الحميم فيقول له: أنت تموت يا فلان ونحن قد سبقناك فى هذا الشأن فمت يهودياً، فهو الدين المقبول عند الله تعالى، فإن انصرفوا عنه وأبى، جاءه آخرون، وقالوا له: مت نصرانيا فإنه دين المسيح، ونسخ به دين موسى ويذكرون له عقائد كل ملة فعند ذلك يزيغ الله من يريد زيغه وهو معنى قوله تعالى: **﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾** [آل عمران:٨]، أى لا تزغ قلوبنا عند الموت وقد هديتنا من قبل هذا إلى الإيمان، فإذا أراد الله تعالى بعبده هداية وتثبيتا، جاءته الرحمة، وقيل هو جبريل عليه السلام يطرد عنه الشيطان ويمسح الشحوب عن وجهه، فيبتسم الميت ضاحكا لا محالة، وكثير من يرى متبسما فى هذه الحالة، فرحا مسرورا بالبشير الذى جاءه رحمة من الله تعالى، يقول: يا فلان أما تعرفنى؟ أنا جبريل وهؤلاء أعداؤك من الشياطين، مت على الملة الحنيفية والشريعة المحمدية فما شيء أحب إلى الإنسان وأفرح منه بذلك الملك، وهو قوله تعالى: **﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾** [آل عمران:٨]، ثم الموت على الفطرة.

ومن الناس من يطعن وهو قائم يصلى أو نائم، أو مار فى بعض أشغاله أو منعكف على اللهو وهو البغتة فتقبض نفسه مرة واحدة.

ومن الناس من إذا بلغت نفسه الحلقوم كشف له عن أهله السابقين وأحدق به جيرانه من الموتى، وحينئذ يكون له خوار يسمعه كل شىء إلا الإنسان ولو سمعه لصعق.

وآخر ما يفقد من الميت السمع، لأن الروح إذا فارقت القلب بأسرها فسد البصر، وأما السمع فلا يفقد حتى تقبض النفس ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله**»، ونهى عن الإكثار بها عليهم لما يجدونه من الهول الأعظم والكرب الأفصم، فإذا نظرت إلى الميت قد سال لعابه وتقلصت شفتاه واسود وجهه، وازرقت عيناه، فاعلم بأنه شقى، قد كشف له عن حقيقة شقوته فى الآخرة.

وإذا رأيت الميت جاف الفم كأنه يضحك منطلق الوجه مكسورة عينه، فاعلم أنه بشر بما يلقاه فى الآخرة من السرور، وكشف له عن حقيقة كرامته، فإذا قبض الملك النفس السعيدة تناولها ملكان حسان الوجوه عليهما أثواب حسنة ولهما روائح طيبة فيلفونها فى حريرة من حرير الجنة، وهى على قدر النحلة شخصا إنسانيا ما فقد من عقله ولا من علمه المكتسب فى دار الدنيا، فيعرجون به فى الهواء، منهم من يعرف ومنهم من لا يعرف، فلا تزال تمر بالأمم السالفة، والقرون الخالية كأمثال الجراد المنتشر حتى تنتهى إلى سماء الدنيا فيقرع الأمين الباب،

فيقال للأمين: من أنت؟

فيقول: أنا صلصيائيل (أى جبريل) وهذا فلان معى – بأحسن أسمائه وأحبها إليه –

فيقولون له: نِعْمَ الرجلُ كان فلان، وكانت عقيدته حسنة، غير شاك، ثم ينتهى إلى السماء الثانية فيقرع الأمين الباب،

فيقال له: من أنت؟ فيقول مقالته الأولى، فيقال:

أهلا وسهلا بفلان، كان محافظا على صلاته، وجميع فرائضها. ثم يمر حتى ينتهى إلى السماء الثالثة، فيقرع الأمين الباب،

فيقال من أنت؟ فيقول الأمين مقالته الأولى والثانية فيقال: كان يرعى الله فى حق ماله ولا يتمسك منه بشيء.

ثم يمر حتى ينتهى إلى السماء الرابعة فيقرع الباب، فيقال له من أنت؟ فيقول كدأبه فى مقالته فيقال:

أهلاً بفلان كان يصوم فيحسن الصوم، ويحفظه من إدراك الرفث وحرام الطعام.

ثم ينتهى إلى السماء الخامسة فيقرع الباب، فيقال من أنت؟ فيقول كعادته فيقال:

أهلاً وسهلاً به أدى حجة الله الواجبة عليه من غير سمعة ولا رياء.

ثم ينتهى إلى السماء السادسة فيقرع الباب، فيقال من أنت؟ فيقول الأمين مقالته فيقال:

مرحباً بفلان، كان كثير الاستغفار بالأسحار ويتصدق بالسر ويكفل الأيتام، ثم يفتح له فيمر حتى ينتهى إلى سرادقات الجلال فيقرع الباب، فيقول الأمين مثل قوله فيقال:

أهلاً وسهلاً ومرحباً بالعبد الصالح والنفس الطيبة، كان كثير الاستغفار، وينهى عن المنكر، ويأمر بالمعروف، ويكرم المساكين، ويمر بملأ من الملائكة كلهم يبشرونه بالجنة، ويصافحونه، حتى ينتهى إلى سدرة المنتهى، فيقرع الباب فيقول الأمين كدأبه فى مقالته فيقال:

أهلاً وسهلاً ومرحباً بفلان، كان عمله عملاً صالحاً لوجه الله تعالى، ثم يفتح له فيمر فى بحر من نار، ثم يمر فى بحر من نور، ثم يمر فى بحر من ظلمة، ثم يمر فى بحر من ماء، ثم يمر فى بحر من ثلج، ثم يمر فى بحر من برد، طول كل بحر منها ألف عام، ثم يخترق الحجب المضروبة على عرش الرحمن وهى ثمانون ألفاً من السرادقات لكل سرادق ثمانون ألف شرافة، على كل شرافة قمر يهلل الله تعالى ويسبحه ويقدسه، لو برز منها قمر واحد إلى سماء الدنيا لَعُبِدَ من دون الله ولأحرقها نوره، فحينئذ ينادى مناد من الحضرة القدسية من وراء السرادقات: من هذه النفس التى جئتم بها؟ فيقول: فلان ابن فلان فيقول الجليل جل جلاله: قربوه فنعم العبد كنت يا عبدى، فإذا أوقفه بين يديه الكريمتين أخجله ببعض اللوم والمعاتبة حتى يظن أنه قد هلك ثم يعفو عنه سبحانه.

كما روى عن يحيى بن أكثم القاضى وقد رئى فى المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: أوقفنى بين يديه، ثم قال: يا شيخ السوء فعلت كذا وفعلت كذا، فقال: يا رب ما بهذا حدثت عنك، قال: فبماذا حدثت عنى يا يحيى؟ فقلت: حدثنى الزهرى عن معمر عن عروة عن عائشة عن النبى ﷺ عن جبريل عنك سبحانك أنك قلت: «**إنى لأستحيى أن أعذب شيبة شابت فى الإسلام**»، فقال: يا يحيى صدقت، وصدق الزهرى وصدق معمر، وصدق عروة، وصدقت عائشة، وصدق محمد، وصدق جبريل وقد غفرت لك.

وعن ابن بنانة وقد رئى فى المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: أوقفنى بين يديه الكريمتين وقال: أنت الذى تلخص كلامك حتى يقال ما أفصحه، قلت: سبحانك إنى كنت فى الدنيا أصفك، قال: قل كما كنت

تقول فى دار الدنيا، قلت: أماتهم الذى خلقهم وأسكتهم الذى أنطقهم وسيوجدهم كما أعدمهم، وسيجمعهم كما فرقهم، قال لى: صدقت اذهب قد غفرت لك.

وعن منصور بن عمار أنه رئى فى المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: أوقفنى بين يديه الكريمتين، وقال لى بماذا جئتنى يا منصور؟ قلت بستة وثلاثين حجة، قال لى: ما قبلت منها ولا واحدة، ثم قال: بماذا جئتنى؟ قلت بثلاثمائه وستين ختمة قرأتها لوجهك الكريم، قال لى: ما قبلت منها واحدة، ثم قال لى: بماذا جئتنى يا منصور؟ فقلت: جئتك برحمتك قال سبحانه: الآن جئتنى اذهب فقد غفرت لك.

وكثير من هذه الحكايات تخبر بهذه الأمور، وإنما حدثتك شيئاً ليقتدى به المقتدى والله المستعان.

ومن الناس من إذا انتهى إلى الكرسى سمع النداء "رُدُّوه"، فمنهم من يرد من الحجب، وإنما يصل إلى الله تعالى عارفوه ولا يقف بين يديه إلا أهل المقام الرابع فصاعدا.

فصل

وأما الفاجر فتؤخذ نفسه عنفاً، فإذا وجهه كآكل الحنظل، والملك يقول: اخرجى أيتها النفس الخبيثة من الجسد الخبيث فإذا له صراخ أعظم ما يكون كصراخ الحمير، فإذا عزرائيل ناولها زبانية قباح الوجوه سود الثياب منتنى الريح بأيديهم مسوح من شعر فيلفونها فيه فتستحيل شخصا إنسانياً على قدر الجرادة فإن الكافر أعظم جرما من المؤمن - يعنى الجسم - فى الآخرة وفى الصحيح: «**إن ضرس الكافر فى النار مثل جبل أحد**».

قال: فيعرج به حتى ينتهى إلى باب سماء الدنيا فيقرع الأمين الباب، فيقال من أنت؟ فيقول: أنا قيابيل، فيقال: من معك؟ فيقول: فلان ابن فلان بأقبح أسمائه وأبغضها إليه فى دار الدنيا، فيقال: لا أهلاً ولا سهلاً ولا يفتح له أبواب السماء ﴿**لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ**﴾ [الأعراف:٤٠] فإذا سمع الأمين هذه المقالة طرحه من يده فتهوى به الريح فى مكان سحيق - أى بعيد - وهو قوله عز وجل: ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾ [الحج:٣١]، فياله من خزى حل به، فإذا انتهى به إلى الأرض ابتدرته الزبانية وسارت به إلى سجين وهى صخرة عظيمة تأوى إليها أرواح الفجار.

وأما اليهود والنصارى فمردودون من الكرسى إلى قبورهم، هذا من مات منهم على شريعته ويشاهد غسله ودفنه.

وأما المشرك فلا يشاهد شيئاً من ذلك لأنه هوى به.

وأما المنافق فمثل الثانى يرد ممقوتاً مطروداً إلى حفرته.

وأما المقصرون من المؤمنين فتختلف أنواعهم، فمنهم من تـــرده صلاته لأن العبد إذا نقر فى صلاته سارقاً لها تلف كما يلف الثوب الخلق ويضرب بها وجهه ثم تعرج وهى تقول: ضيعك الله كما ضيعتنى، ومنهم من ترده زكاته لأنه إنما يزكى ليقال: فلان متصدق، وربما وضعها عند النسوان فاستجلب بها محبتهن، ولقد رأيناه - عافانا الله مما حـــل بـــه - ومن الناس من يرده صومه؛ لأنه صام عن الطعام ولم يصم عن الكـــلام فهو رفث وخسران فخرج الشهر عنه وقد لهوجه[١]، ومن الناس من يرده حجه لأنه إنما حج ليقال: فلان حج، أو يكون حج بمال خبيث.

ومن الناس من يرده العقوق، وسائر أحوال البر كلها لا يعرفها إلا العلماء بأسرار المعاملات وتخصيص العمل الذى للملك الوهـــاب، فكـــل هذه المعانى جاءت بها الآثار والأخبار، وكالخبر الذى رواه معاذ بن جبل - رضى الله عنه - فى رد الأعمال وغيرها، وإنما أردت تقريب الأمـــر ولولا الاختصار لكنت ملأت الدواوين من تصحيح ذلك وأهـــل الشـــرع يعرفون صحة ذلك كما يعرفون أبناءهم.

فإذا ردت النفس إلى الجسد ووجدته قد أخذ فى غسله إن كان قـــد غسل فتقعد عند رأسه حتى يغسل فيكشف الله عن بصر من يشـــاء مـــن الصالحين فينظرها على صورتها الدنيوية.

وقد حدث شخص أنه غسل ابناً له فإذا هو بشخص قاعـــد عنـــد رأسه فأدركه الوهم فترك الجهة التى رأى فيها الشخص وتحـــول إلـــى الجهة الأخرى فلم يزل ينظره حتى أدرج الميت فى كفنه، فعاد إليه ذلـــك الشخص فشاهده العالم وهو على النعش، كما روى عن غير واحد مـــن

---

[١] (قوله لهوجه) فى القاموس: لهوج أمره إذا لم يبرمه اهـ. أى لم يتقنه.

الصالحين أنه نادى ميتاً وهو فى النعش: أين فلان؟ وأين الروح؟ فانتفض الكفن من تلقاء صدره مرتين أو ثلاثة.

وعن الربيع بن خيثم أنه اضطرب فى يد غاسله، وقد علم أن الميت تكلم فى نعشه على عهد الصديق وذكر فضله وفضل الفاروق وإنما هى النفس تشاهد أمراً ملكوتياً ويكشف الله عن سمع من يشاء.

فإذا أدرج الميت فى أكفانه صارت الروح ملتصقة بالصدر خارجة ولها خوار وعجيج وهى تقول: أسرعوا بى إلى رحمة ربى، لو علمتم ما أنتم حاملونى إليه، فإن كان يبشر بالشقاء يقول: رويداً بى إلى عذاب، لوتعلمون ما أنتم حاملونى إليه، ولأجل ذلك كان رسول الله ﷺ لا يمر به جنازة إلا قام لها قياما، وفى الصحيح أنه ﷺ مرت به جنازة فقام لها تعظيما، فقيل: يا رسول الله إنه يهودى، فقال: «**أليست نفسا؟**»، وإنما كان يفعله لأنه كشف له عن أسرار الملكوت، فكان يسر بالميت إذا مر به لأنه من أهل فهمه ومعانيه.

فإذا دخل الميت القبر وأهيل عليه التراب ناداه القبر: كنت تفرح على ظهرى واليوم تحزن فى بطنى، كنت تأكل الألوان على ظهرى والآن تأكلك الديدان فى بطنى، ويكثر عليه مثل هذه الألفاظ الموبخة حتى يسوى عليه التراب، ثم يناديه ملك يقال له رومان، وقد روى عن ابن مسعود - رضى الله عنه - أنه قال: يا رسول الله ما أول ما يلقى الميت إذا دخل قبره؟ قال: «**يا ابن مسعود ما سألنى عنه أحد إلا أنت، فأول ما يناديه ملك اسمه رومان يجوس خلال المقابر، فيقول: يا عبد الله اكتب عملك، فيقول: ليس معى دواة ولا قرطاس، فيقول: هيهات، كفنك قرطاسك ومدادك ريقك وقلمك أصبعك، فيقطع قطعة من كفنه ثم يجعل العبد يكتب وإن كان غير كاتب فى الدنيا فيكتب حينئذ حسناته وسيئاته**

كيوم واحد ثم يطوى الملك الرقعة ويعلقها فى عنقه» ثم قرأ رسول الله ﷺ **﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾** [الإسراء:١٣]، فإذا فرغ من ذلك دخل عليه فتانا القبر، وهما ملكان أسودان يخرقان الأرض بأنيابهما، لهما شعور مسدولة يجرانها على الأرض، كلاهما كالرعد القاصف وأعينهما كالبرق الخاطف ونفسهما كالريح العاصف، وبيد كل واحد منهما مقمع من حديد لو اجتمع عليه الثقلان ما رفعاه ولو ضرب به أعظم جبل لجعله دكاً، فإذا أبصرتهما النفس ارتعدت وولت هاربة فتدخل فى منخر الميت فيحيا الميت من الصدر، ويكون كهيئته عند الغرغرة، ولا يقدر على حركة غير أنه يسمع وينظر، فيسألانه بعنف وينهرانه بجفاء، وقد صار التراب له كالماء حيثما تحرك انفتح فوه ووجد فيه فرجة، فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وما قبلتك؟ فمن وفقه الله وثبته بالقول الثابت قال: من وكلكما علىّ ومن أرسلكما إلىّ، ثم يقول: الله ربى ومحمد نبيى والإسلام دينى، وهذا ما يقوله إلا العلماء الأخيار، فيقول أحدهما للآخر: صدق لقد كفى شرنا ولقن حجته، ثم يضربان عليه القبر كالقبة العظيمة ويفتحان له باباً إلى الجنة من تلقاء يمينه، ثم يفرشان له من حريرها وريحانها يدخل عليه من نسيمها وروائحها، ويأتيه عمله فى صورة أحب الأشخاص إليه يؤنسه ويحدثه ويملأ قبره نوراً ولا يزال فى فرح وسرور ما بقيت الدنيا حتى تقوم الساعة فليس شىء أحب إليه من قيامها.

ودونه فى المنزلة المؤمن القليل العلم والعمل، ليس معه حظه من العلم ولا من أسرار الملكوت، يلج عليه عمله فى أحسن صورة، طيب الريح حسن الثياب، فيقول له: أما تعرفنى؟ فيقول من أنت الذى منّ الله بك علىّ فى غربتى؟ فيقول: أنا عملك الصالح، لا تحزن ولا توجل، فعما

قليل يلج عليك منكر ونكير يسألانك فلا تدهش، ثم يلقنه حجته، فبينما هو كذلك إذ دخلا عليه كما تقدم ذكرهما فينهرانه ويقعدانه مستنداً ويقولان له: من ربك؟ فيسبق إلى القول الأول فيقول: الله ربى ومحمد نبيى والقرآن إمامى والكعبة قبلتى وإبراهيم أبى وملته ملتى غير مستعجم فيقولان له: صدقت، ويفعلان به كالأول إلا أنهما يفتحان له باباً من النار من تلقاء شماله فينظر إلى حياتها وعقاربها وأغلالها وسلاسلها وحميمها وجميع ما فيها من صديدها وزقومها فيفزع، فيقولان له: لا عليك سوء هذا موضعك كان من النار قد أبدله الله تعالى بموضعك هذا من الجنة نم سعيداً ثم يغلقان عنه باب النار ولم يدر ما مر عليه من الشهور والأعوام والدهور.

ومن الناس من ينعجم فى مسألته وإن كانت عقيدته مختلفة امتنع أن يقول الله ربى وأخذ يذكر غيرها من الألفاظ فيضربانه ضربة يشتعل قبره منها ناراً ثم يطفأ عنه أياماً ثم يشتعل عليه أيضا ما بقيت الدنيا.

ومن الناس من يعتاص عليه ويعسر أن يقول الإسلام دينى بشك كان يتوهمه أو فتنة تقع به عند الموت فيضربانه ضربة واحدة فيشتعل عليه قبره ناراً كالأول.

ومن الناس من يعسر أن يقول القرآن إمامى لأنه يتلوه ولا يتعظ به ولا يعمل بأوامره ولا ينتهى بنواهيه يطوف عليه دهره ولا يعظ نفسه خيره فيفعل به ما فعل بالأولين.

ومن الناس من يستحيل عمله جروا يعذب به فى قبره على قدر جرمه، فى الأخبار أن من الناس من يستحيل عمله حنوصا وهو ولد الخنزير.

ومن الناس من يعتاص أن يقول محمد نبيى لأنه كان ناسيا لسنته.

ومن الناس من يعتاص عليه أن يقول الكعبة قبلتى لقلة تحريه فى صلاته أو فساد فى وضوئه أو التفات فى صلاته أو اختلال فى ركوعه وسجوده، ويكفيك ما روى فى فضائلها أن الله لا يقبل صلاة ممكن عليه صلاة[١] ومن عليه ثوب حرام.

ومن الناس من يعتاص عليه أن يقول أبى إبراهيم لأنه سمع كلاما يوماً أوهمه أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً فإذا هو شاك مرتاب فيفعل به ما فعل بالآخرين وكل هذه الأنواع كشفناها فى كتاب الإحياء.

---

[١] هكذا فى الأصل، ولعل الصواب: «لا يقبل الله صلاة من صاحب مكس» كما ورد فى الحديث، والله أعلم.

فصل

وأما الفاجر فيقولان له: من ربك؟ فيقول: لا أدرى، فيقولان له: لا دريت ولا عرفت ثم يضربانه بتلك المقامع الحديد حتى يتجلجل فى الأرض السابعة، ثم تنفضه الأرض فى قبره ثم يضربانه سبع مرات، ثم تختلف أحوالهم فمنهم من يستحيل عمله كلباً ينهشه حتى تقوم الساعة وهم المرتابون، وهى أنواع تعترى أهل القبور، وإنما أثرنا الاختصار فى ذكرها، وأصلها أن الرجل إنما يعذب فى قبره بالشىء الذى كان يخافه فى الدنيا، فمن الناس من يخاف الجرو أكثر، وطبائع الخلق مفترقة فنسأل الله السلامة والغفران قبل الندامة.

وقد روى عن غير واحد من الموتى أنه رئى فى المنام فقيل له: كيف كان حالك؟ فقال: صليت بلا وضوء فوكل الله علىَّ ذئباً يروعنى فى قبرى، فحالى معه سوء حال، وآخر رئى فى المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: عذبنى فإنى لم أتمكن فى غسل يوم من الجنابة فألبسنى الله ثوبا من نار أتقلب فيها إلى يوم القيامة.

ورئى آخر فقيل: ما فعل الله بك؟ فقال: الغاسل الذى غسلنى حملنى بعنف فخدشنى مسمار كان فى المغتسل قائما فتألمت منه، فلما أصبح الصباح سئل الغاسل، فقال: كان ذلك من غير اختيارى.

ورئى آخر فى المنام، فقيل له: كيف حالك أو لم تمت؟ قال: نعم وأنا بخير، غير أن الحجر كسر ضلعى عندما سوى على التراب فأضرنى، ففتح القبر فوجدوه كما قال.

وآخر جاء إلى ولده فى النوم، فقال له: يا ولد سوء أصلح قبر أبيك، لقد آذاه المطر، فلما أصبح بعث الرجل إلى قبر أبيه فوجد جدولا من الماء وقد أتى عليه من سيل وإذا بالقبر مملوء من الماء.

وعن أعرابى أنه قال لولده: ما فعل الله بك؟ قال: ما ضـــرنى إلا أن دفنت بإزاء فلان وكان فاسقاً، قد روعنى ما يعذب بـــه مـــن أنـــواع العذاب، وكثيراً ما جاء فى مثل هذه الأخبار حكايات تبين أن أهل القبور يؤلمون فى قبورهم، وكفى بالخبر دلالة حيث يقول صـــاحب الشـــرع ﷺ «**يؤلم الميت فى قبره كما يؤلم الحى فى بيته**»، وقد نهى رســـول الله ﷺ عن كسر عظام الميت، وقد مر برجل قاعد على فناء قبر فنهاه وقال: «**لا تؤذوا الموتى فى قبورهم**» وقد زار النبى ﷺ قبر أمه آمنة فبكى وأبكـــى من كان معه ثم قال: «**استأذنت ربى فى الاستغفار لها فلم يأذن لى، ثـــم استأذنت أن أزور قبرها فأذن لى، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت**».

وكان إذا حضر إلى المقابر ليزورها يقول ﷺ: «**سلاماً على أهـــل الديار من المسلمين والمؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، أنتم لنـــا فرط ونحن لكم تبع، اللهم اغفر لنا ولهم وتجاوز بعفوك عنا وعـــنهم**» فكان يعلم نساءه ﷺ إذا خرج النساء إلى المقابر يقول لهن: قولـــوا هـــذا الكلام، ويعلمهن إياه.

وقال صالح المزنى: سألت بعض العلماء لأى شىء نهـــى عـــن الصلاة فى المقبرة؟ فقال: ورد حديث، فاستدل بحديث: «**لا تصلوا بـــين القبور فإن ذلك حسرة لا منتهى لها**».

وروى عن بعضهم أنه قال: قمت أصلى ذات يوم فى المقابر وقد اشتد الحر وقوى إذ رأيت شخصاً يشبه أبى جالساً علـــى ظهـــر قبـــره فسجدت فزعاً فسمعته يقول: ضاقت عليك الأرض رحبـــاً حتـــى جئـــت تؤذينا بصلاتك منذ زمان.

وفى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ مر بيتيم يبكى على قبـــر أبيه فبكى رحمة له، ثم قال: «**إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه**»، أى أن

ذلك يحزنه ويسوؤه، فكم من ميت رئى فى المنام فقيل له: كيف حالك يا فلان؟ فيقول: حال سوء، ساء حالى من فلان وفلانة كانا يكثران البكاء والنواح على، إلا أن الزنادقة ينكرون ذلك.

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من أحد منكم يمر بقبر أخيه المؤمن ممن يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه**» وكذا حدث عليه الصلاة والسلام وقد انصرف عن جنازة دفنوها أنه يسمع قرع نعالهم وهم بغيره أسمع وأسمع.

ومات بعض الفقهاء ولم يوص بشيء ثم طاف على أهل بيته بالليل وقال: أعطوا فلان كيت وكيت من الزرع، وادفعوا لفلان كتابه الذى كان عندى مودوعا منذ زمان فلما أصبحوا ذكر كل واحد منهم لأخيه ما رأى ثم دفعوا الزرع، وطلبوا الكتاب فلم يجدوه فتعجبوا من ذلك ثم إنهم وجدوه بعد زمان فى زوايا البيت.

وعن بعضهم قال: اتخذ أبونا لنا مؤدباً يعلمنا الكتابة فى الدار فمات، فخرجنا إلى قبره بعد ستة أيام وجعلنا نتذاكر أمر الله عز وجل فمر بنا طبق من تين، فاشتريناه، وأكلناه ورمينا الأذناب على القبر، فلما كان تلك الليلة رأى أبونا الشيخَ فى المنام، فقال له: كيف حالك؟ فقال: بخير، غير أن أولادك اتخذوا قبرى مزبلة، وتحدثوا على بكلام هو كفر فخاصمنا أبونا للشيخ، وقال: إن الشيخ قال لى إنهم قالوا عند قبرى شيئا يشبه الكفر، فقلنا: يا سبحان الله لا يزال يؤدبنا فى الدنيا والآخرة.

ومن هذه الحكايات كثير إلا أنى ذكرت هذا القدر أمثالا ومواعظ ليعتبر بالأقل.

فصل

وأما أهل القبور فعلى أربعة أحوال، منهم القاعد على عقبه حتى تنتثر العين وتورم الجثة ويعود الجسم تراباً، ثم لا يزال بعد ذلك طوافا فى الملكوت دون سماء الدنيا، ومنهم من يرسل الله عليه نعسة فلا يدرى ما فعل حتى ينتبه مع النفخة الأولى ثم يموت، ومنهم من لا يقوم على قبره إلا شهرين أو ثلاثا ثم تركب نفسه على طير يهوى به فى الجنة وهو الحديث الصحيح حيث يقول صاحب الشرع ﷺ: «**نسمة المؤمن من طائر يعلق فى شجر الجنة**» وفى المعنى الصحيح والوجه الحسن[1] وكذلك سئل عن أرواح الشهداء فقال: «**الشهداء فى حواصل طيور خضر تعلق بهم فى شجرة الجنة**»، ومن الناس من إذا بادت عينه عرج به إلى الصور، فلا يزال لازما له حتى ينفخ فى الصور.

والنوع الرابع خص به الأنبياء والأولياء ولهم الخيار، فمنهم من يكون طوافاً فى الأرض حتى تقوم الساعة وكثيراً ما يرى فى الليل، وأظن الصديق منهم والفاروق، والرسول ﷺ له الخيار فى طواف العوالم الثلاثة، وعن هذه الإرادة قال يوماً تنبيهاً وإشارة ﷺ «**إنى أكرم على الله من أن يدعنى فى الأرض أكثر من ثلاث**» وكانت ثلاث عشرات؛ لأن الحسين قُتِلَ عَلى رأس الثلاثين سنة فغضب على أهل الأرض وعرج إلى السماء، وقد رآه بعض الصالحين فى النوم فقال: يا رسول الله بأبى أنت وأمى ما ترى فى فتن أمتك؟ قال: زادهم الله فتنة، قتلوا الحسين ولم يحفظونى فيه، ثم جعل يعدد كلاماً اشتبه على الراوى، ومنهم من اختار السماء السابعة كإبراهيم عليه السلام وفى الحديث أنه مر به ﷺ وهو مسند ظهره إلى البيت المعمور وقد أحدق به أولاد المسلمين، وعيسى

---

[1] هكذا فى الأصل.

عليه السلام فى السماء الخامسة، وفى كل سماء رسل وأنبياء لا يخرجون منها ولا يبرحون حتى الصعقة وليس منهم من لــه الخيــار إلا الخليــل والكليم والروح والحبيب، هؤلاء ينتهون حيث أرادوا من العالمين، وأمــا الأولياء فمنهم من وقف على البعثة الدنيوية كما روى عن أبى يزيد أنــه تحت العرش يأكل من مائدة، وعلى هذه الأنواع الأربعة حال أهل القبور يعذبون ويرحمون ويهانون ويكرمون فالذين هم منهم يحدقون بالميت إذا احتضر حتى يضيق بهم رحاب المنازل، وربما كشف له فيراهم ويفطــن بهم، وقد رأيت من حدث بهذا النوع.

وقد رأيت بعض الأصحاب كشف عن بصيرته فنظر إلــى ولــده الميت قد ولج البيت، والميت يفيق ويتصور، وهذه الفوائد الملكوتية إنمــا تكون لكريم أو نسيب، نسأل الله أن يجود لنا بمعرفة ما نخوض به بحــر أسرارها حتى يرتفع الشك والارتياب، ومع هذه الأنــواع الموصــوفة لا يعقل منهم تكوين الليل والنهار إلا من كان عينه باقية لم يعرج به علــوا فمنهم من يعرف الجمعة والأعياد، وإذا خرج أحد من الدنيا اجتمعوا إليه وعرفوه، فهذا يسأل عن زوجته، وهذا يسأل عن والده، وكل واحد يسأل عن أربه، وربما مات الميت فلم يلق أحد معارفه لزيغ يصيبه عند الموت فيموت يهودياً أو نصرانياً فيصير إلى عساكرهم، فإذا قدم أحد من الــدنيا سأله جيرانه ما علمك بفلان؟ فيقول لهم: قد مات، فيقال: إنا لله وإنا إليــه راجعون، ما رأيناه، سلك به إلى أمه الهاوية.

وقد رئى بعض الناس فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: أنــا وفــلان وفلان، وعد خمسة من أصحابه، فى خير كثيــر ونعمــة، وكــان قتلــه الخوارج مع أصحابه المعروفين.

وسئل عن جار له ما فعل الله به؟ فقال: ما رأيناه، وإنما كان هذا المنكور ألقى نفسه فى اليم حتى مات غرقاً، وأظنه والله مع قاتلى أنفسهم وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**من قتل نفسه بحديدة جاء يوم القيامة وحديدته فى يده يتوجأ بها فى بطنه فى بطن جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى فى نار جهنم**» الحديث، وكذلك المرأة تموت بحد لا تزال تجد ذلك الألم حتى النفخة فهذه حياة ثانية.

وقد صح أن آدم عليه السلام لقى موسى عليه السلام فقال له موسى: أنت الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك جنته فلم عصيته؟ قال له: يا موسى، أنت الذى اتخذك الله كليما وأنزل عليك التوراة ألم تر فيها "وعصى آدم ربه"؟ قال له موسى: نعم فقال له: فى كم سنة وجدت الذنب قدر على قبل فعله؟ قال له: كتب عليك قبل أن تفعله بخمسين ألف سنة، قال: يا موسى أفتلومنى على ذنب قدر على قبل أن أفعله بخمسين ألف عام!

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ صلى بالمرسلين ليلة أسرى به ركعتين، وأنه سلم على هارون عليه السلام فدعا له بالرحمة ولأمته، وأنه سلم على إدريس فدعا له بالرحمة ولأمته، وكان أولئك قد ماتوا وبادت أعينهم، وإنما هى حياة الأنفس، وبعد هذا الإحياء حياة ثالثة، والحياة الأولية يوم أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا، ولا يعتد بالحياة الدنيوية فإنها مسخرة للتنعم.

ويروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا**»، فهذه أحوال الأموات إذا بادت أعينهم، منهم المستقر، ومنهم الطواف، ومنهم المضروب عليه، ومنهم المعذب، والدليل على صحة

ذلك قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، واليوم بيان عذاب البرزخ.

فصل

فإذا أراد الله تعالى قيام الساعة دون النفخ فى الصور على السر الذى بيناه فى "الإحياء" فإذا الجبال تتطاير وتسير مثل السحاب، وإذا البحار قد تفجرت بعضها فى بعض وتكورت الشمس، فعادت سوداء مزبرة وسجرت الجبال على أمثال عالم الهواء، ودخل العالم بعضه فى بعض وانتثرت النجوم كالسلك إذا انتثر من نظمه، وعادت السماء كدهن الورد تدور كدوران الرحا، والأرض قد زلزلت زلزالاً شديداً، تارة تنقبض وتارة تنبسط كالأديم حتى أن الله يأمر بخلع الأفلاك فلا يبقى فى الأرضين السبع ولا السموات السبع ولا فى الكرسى حى كائن إلا وقد ذهبت نفسه، وإن كان روحانيا ذهب روحه، وقد خلت الأرض من عمارها والسماء من سكانها على ضروب الموحدين.

ثم إن الله جل جلاله يتجلى فى المقام فيقبض السموات السبع فى يمينه والأرضين السبع الأخرى، ثم يقول الله عز وجل: يا دنيا يا دنية أين أربابك وأين أصحابك؟ فتنتيهم ببهجتك وشغلتيهم عن آخرتهم بزهوتك.

ثم يثنى على نفسه بما شاء ويفتخر بالبقاء المستمر، والعز الدائم والملك الباقى، والقدرة القاهرة والحكمة الباهرة، ثم يقول تعالى: لمن الملك اليوم؟ فلا يجيبه أحد، فيجيب نفسه بنفسه بأن يقول: لله الواحد القهار، ثم يفعل فعلاً أعظم من الأول، وهو أن يأخذ السموات على أصبع، والأرضين على أصبع ثم يهزها ويقول سبحانه: أنا الملك الديان أين عبدة الأوثان، الذين عبدوا غيرى من دونى وأشركوا بى وأكلوا رزقى؟ أين الذين تقووا برزقى على المعاصى؟ أين الجبابرة؟ أين من تكبر وافتخر؟ لمن الملك اليوم؟ كالمرة الأولى، ثم يمكث كذلك سبحانه

وتعالى ما شاء الله وليس من العرش إلى المقام نسمة تلوح تعقل وقد ضرب الله على آذان الحور والولدان فى جنتهم، ثم يكشف الله سبحانه وتعالى عن بئر فى سقر، فيخرج منها لهيب النار فتشتعل فى الأربعة عشر بحراً كما تشتعل النار فى الصوف المنفوش، فما تدع منها قطرة واحدة، وتدع الأرضين جملة سوداء والسموات كأنها عكر الزيت والنحاس المذاب.

فإذا دنا اللهيب أن يتعلق بعنان السماء زجر الله النار زجرة خمدت ثم لا يرفع لها لهيب، ثم يفتح الله سبحانه وتعالى خزانة من خزائن العرش فيها بحر الحياة فتمطر الأرض فإذا هو كمنى الرجال فيلقى الأرض عطشى ميتة هامدة فتحيا وتهتز ولا يزال المطر عليها حتى يعمها ويكون الماء أربعين ذراعا فإذا بالأجسام تنبت من العصعص، وفى الحديث «**إن الإنسان يبدأ من عجب الذنب ومنه يعود**».

وفى رواية أخرى: «**يبلى المرء كله إلا عجب الذنب منه بدأ ومنه يعود**»، وهو عظم على قدر الحمصة ليس له مخ، فمنه تنبت الأجسام فى مقابرها كما ينبت البقال حتى يشتبك بعضها فى بعض فإذا رأس هذا عند منكب هذا ويد هذا عند عجز هذا لكثرة البشر.

وفى معنى قوله عز وجل: ﴿**قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ**﴾ [ق:٤]، نبهنا عليه فى كتابنا "الإحياء"، فإذا تمت النشأة على حسبها، الصبى صبى، والشيخ شيخ، والكهل كهل، والفتى فتى والشاب شاب، أمر الجليل جل جلاله أن تهب ريح من تحت العرش فيها نار لطيفة فيكشف ذلك عن الأرض، وتبقى الأرض بارزة ليس فيها حدب ولا عوج ولا أمت، وقد عادت الجبال رمالا، وهو الكثيب المهيل.

ثم يحيى الله سبحانه وتعالى إسرافيل فينفخ فى الصور من صخرة بيت المقدس، والصور قرن من نور له أربع عشرة دارة، الدارة الواحدة فيها ثقب بعدد أرواح البرية، فتخرج أرواح البرايا، لها دوى كدوى النحل فتملأ ما بين الخافقين، ثم تذهب كل نسمة إلى جثتها، فسبحانه ملهمهم إياها، حتى الوحش والطير وكل ذى روح، فإذا الكل كما قال تعالى: **﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾** [الزمر:٦٨]، والزجرة العظيمة هى الصيحة كما قال الله تعالى: **﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾** [النازعات: ١٣-١٤]، والساهرة: هى الأرض السفلى لأنهم فتحوا أبصارهم عند قيامهم فنظروا إلى جبال منسوفة وبحار منزوفة والأرض لا عوج فيها ولا أمت، والأمت: الشىء المرتفع كالربوة والعوج: الأرض المنخفضة، كالوهدة والأودية، وإنما صارت مستوية كأنها صحفة قاعدة فتعجبوا لما نظروا من الساهرة، وقعد كل واحد منهم على قبره عرياناً منتظراً متعجباً متفكراً معتبراً كما قال ﷺ فى الصحيح: «**عراة غرلا**» أى غير مختونين، إلا قوما ماتوا فى الغربة مؤمنين لم يكفنوا فإنهم يحشرون وقد كسوا ثياباً من الجنة، وأقواما ماتوا شهداء فيقومون وقد كسوا من الجنة، وأقواما أيضاً من أمة محمد ﷺ متحرين السنة ما حافوا عنها سم الخياط فإن رسول الله ﷺ قال: «**بالغوا فى أكفان موتاكم فإن أمتى تحشر بأكفانها وسائر الأمم عراة**»، رواه أبو سفيان مسندا.

وقال ﷺ: «**يحشر الميت فى ثيابه**»، وبعض الموتى لما احتضر قال: اكسونى الثوب الفلانى، فمنع منه حتى مات فى غلالة ليس عليه غيرها، فرئى فى المنام بعد أيام قلائل كأنه حزين فقيل له: ما بالك؟

فأعرض عن خطابه، ثم قال: منعتمونى ثوبى وجعلتمونى أحشر فى هذه الغلالة لاغير.

فصل فى الإقامة التى بين النفختين

وهى الموتة الثانية لأنها منعت من الحواس الباطنة، والموت الجسمانى منع من الحواس الظاهرة؛ لأن الأجرام هى الفاعلة للحركة ولأنهم لا يصلون ولا يصومون، ولا هم يتعبدون، ولو أدخل الله ملكاً فى جثة لأقام فيها لأنه ذو حرص على التحيز إلى عالمه والنفس جوهر بسيط فإذا ركبت فى الجسد صحت حياته وأفعاله.

واختلف الناس فى هذه المدة الكائنة بين النفختين، واستقر جمهورهم على أنها أربعون سنة.

وحدثنى من لا أشك فى علمه ولا معرفته أن أمر ذلك لا يعلمه إلا الله تعالى لأنه من أسرار الربوبية، وكذلك حدثنى أن الاستثناء واقع عليه سبحانه وتعالى خاصة فقلت: ما معنى قول النبى ﷺ: «**أنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة، فإذا أخى موسى آخذ بقائمة العرش، فلا أدرى أبعث قبلى أم كان ممن استثناه الله عز وجل**»؟ فلا يخرج من هذا الحديث على ما نقدره إلا غير أجسام، وإن كان موسى الآن لا جثة له وبعد الاستثناء الذى عن رسول الله ﷺ فى أمر الفزع؛ لأن البرايا عند الصعقة وعند الفزعة كما قال كعب، وقد حدث فى مجلس عمر ابن الخطاب - رضى الله تعالى عنه - عن هول المقام حيث قالوا: فلو كان ذلك يابن الخطاب عمل سبعين نبيا لظننت أنك لا تنجو من ذلك اليوم إلا قوما استثناهم الله فى هول الفزع والصعق، وهم أهل المقام الرابع، لا شك أن موسى أحدهم، والاستثناء من بلوغ الأمر، ولوكان هناك أحد لأجاب الله تعالى حين يقول لمن الملك اليوم؟ لقال: لك يا واحد يا قهار.

فصل

فإذا استوى كل أحد قاعداً على قبره، فمنهم العريان والمكسو والأسود والأبيض، ومنهم من يكون له نور كالمصباح العظيم، ومنهم من يكون له نور كالشمس، إلا أن كل واحد منهم لا يزال مطرقاً برأسه، ما يدرى ما يصنع ألف عام، حتى تظهر نار من المغرب لها دوى تسوق الخلق إلى المحشر فيندهش لها رءوس الخليقة إنساً وجناً ووحشاً وطيراً فيأخذ كل واحد عمله ويقول: قم وانهض إلى المحشر، فمن كان له حينئذ عمل جيد تشخَّص له عمله بغلا، ومنهم من تشخص عمله له حماراً ومنهم من تشخص له عمله كبشاً تارة يحمله وتارة يلقيه، ويجعل لكل واحد نور شعاعى بين يديه، وعن يمينه ومثله يسرى بين يديه فى الظلمات، وهو قوله تعالى **﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾** [التحريم:٨]، وليس عن شمائلهم نور بل ظلمة حالكة لا يستطيع أحد ينظر فيها يحتار فيها الكفار ويتردد المرتابون، والمؤمن ينظر إلى قوة حلكها وشدة حندسها ويحمد الله على ما أعطاه من النور المهتدى به فى تلك الشدة ويسعى بين أيديهم؛ لأن الله يكشف للعبد المؤمن المتنعم عن أحوال أهل الشقاء المعذبين، ليستبين له سبل الفائدة، كما فعل أهل الجنة وأهل النار، حيث يقول: **﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاء الْجَحِيمِ﴾** [الصافات:٥٥] وكما قال سبحانه وتعالى **﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾** [الأعراف:٤٧]، لأن أربعا لا يعرف قدرها إلا أربعة، لا يعرف قدر الحياة إلا الموتى، ولا يعرف قدر

النعمة إلا أهل الشدائد[1]، ولا يعرف قدر الغنى إلا الفقراء، ولا يعرف قدر الصحة إلا المرضى.

ومن الناس من يسعى على قدميه وعلى أطراف بنانه، ومنهم من له نور ينطفئ تارة ويشتعل أخرى، وإنما نورهم عند البعث على قدر إيمانهم، وسرعة خطواتهم على قدر أعمالهم.

قيل لرسول الله ﷺ فى حديث صحيح: كيف نحشر يا رسول الله؟ قال: «**اثنان على بعير وخمسة على بعير وعشرة على بعير**».

ومعنى هذا الحديث والله أعلم أن قوما يتلاقون فى الإسلام فيرحمهم الله تعالى، خلق لهم من أعمالهم بعيراً يركبون عليه، وهذا من ضعف العمل؛ لأنهم مشتركون معهم، فهم كقوم خرجوا فى سفر بعيد وليس معهم أحد، منهم من يشترى مطية توصله فاشترك فى ثمنها رجلان أو ثلاثة فاشتروا مطية يتعاقبون عليها فى الطريق، وقد يبلغ بعير مع عشرة، فهذا العجز فى العمل معناه قبض اليد فى المال، أى منع التصرف فيه، ومع هذا يحكم له بالسلامة، فاعمل هداك الله عملاً يكون لك بعيراً خالصاً من الشركة، واعلم أن ذلك هو المتجر الرابح، فالمتقون وافدون كما قال الجليل جل جلاله: ﴿**يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا**﴾ [مريم:٨٥].

وفى غريب الحديث أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: «**كان رجل من بنى إسرائيل كثيراً ما يفعل الخير حتى إنه ليحشر فيكم**»، قالوا له: وما كان يصنع؟ قال: «**ورث من أبيه مالا كثيراً فاشترى بستانا فحبسه للمساكين، وقال: هذا بستانى عند الله، وفرق دنانير عديدة فى**

---

[1] فى الأصل: ولا يعرف قدر الشدة إلا أهل النعم، ولعل الصواب ما أثبتناه. اهـ. مصححه.

الضعفاء، وقال: بهذا اشترى جارية من الله تعالى وعبيداً، وأعتق رقابا كثيرة، وقال: هؤلاء خدمى عند الله، والتفت ذات يوم إلى رجل ضرير فرآه تارة يمشى وتارة يكبو، فابتاع له مطية يسير عليها وقال: هذه مطيتى عند الله تعالى أركبها، والذى نفسى بيده لكأننى أنظر إليها وقد جىء بها مسرجة ملجمة لأركبها فى الموقف»

وقيل فى تفسير قوله تعالى: ﴿**أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [الملك:٢٢]، أنه مَثَل ضربه الله ليوم القيامة فى حشر المؤمنين والكافرين، كما قال الله تعالى: ﴿**وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا**﴾ [مريم:٨٦]، أى مشاة على وجوههم، هذا قول بعض المفسرين، وليس الأمر كما حكاه، وإنما السر فى ذلك أنه تارة يمشى وتارة يكبو على وجهه، والذى تأوله بعيد؛ لأن الله تعالى ذكر الأرجل فقال تعالى: ﴿**وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [النور:٢٤] وقوله:عمياً وبكماً وصماً تفسير غير المقصد الذى أرادوه، وترك الإشارة التى نبأك عليها، فقد رأيت العرب يتمثلون بها ويقولون: هذا يمشى على وجهه إذا كان يكبو، ومعناه: عمياً عن النور الذى يشعشع بين أيدى المؤمنين وعن أيمانهم، وليس العمى الكلى إرادتهم؛ لأنه لا خلاف أنهم ينظرون السماء تنشق بالغمام، والملائكه تنزل، والجبال تسير، والكواكب تنتثر، وكل أهوال يوم القيامة تفسير قوله تعالى: ﴿**أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ**﴾ [الطور:١٥]، فمعنى العمى فى القيامة الخوض فى الظلمة والمنع عن النظر إلى الكريم؛ إذ نور الله سبحانه وتعالى تشرق به الأرض البيضاء، وهم ضرب على أبصارهم غشاوة لا ينظرون إلى شىء من ذلك، كذلك ضرب على آذانهم فلا يسمعون كلام الله تعالى

والملائكة الذين ينادون: ﴿**يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ**﴾ [الزخرف:٦٨-٧٠].

وكذلك منعوا من الكلام كأنهم بكم، يفسره قوله تعالى: ﴿**هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ**﴾ [المرسلات:٣٥-٣٦]، والممنوع من الشيء موصوف بالضعف عن قدرته وإن كانت الصفة فيه موجودة فكأنها معدومة الوجود فى حال دون حال.

ومن الناس من يحشر بفتنته الدنيوية، فقوم مفتنون بالعود وعاكفون عليه دهرهم فعند قيام أحدهم من قبره يأخذه بيمينه فيطرحه من يده ويقول: سحقاً لك شغلتنى عن ذكر الله، فيعود إليه ويقول: أنا صاحبك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين، وكذلك يبعث السكران سكراناً والزامر زامراً، وكل واحد على الحال الذى صَدَّه عن سبيل الله.

ومثله الحديث الذى روى فى الصحيح: «**إن شارب الخمر يحشر والكوز معلق فى عنقه، والقدح بيده، وهو أنتن من كل جيفة على الأرض، يلعنه كل من يمر عليه من الخلق**».

والميت أيضاً يحشر بظلامته، وفى الصحيح: «**إن المقتول فى سبيل الله يأتى يوم القيامة وجرحه يشخب دماً، اللون لون الدم، والريح ريح المسك حتى يقف بين يدى الله عز وجل**».

فإذا ساقتهم الملائكة زمراً وأفواجاً، تحت كل واحد ما قدر له وجمعوا فى صعيد واحد من إنس وجن وشيطان ووحش وسبع وطير تجد لهم[1] الملائكة إلى الأرض الثانية، وهى أرض بيضاء من فضة نورية

[1] **هكذا فى الأصل، والأقرب للصواب (تجذبهم) أو (تسوقهم) ا.هـ. مصححه.**

وصارت الملائكة من وراء العالمين حلقة واحدة، فإذا هم أكثر من أهل الأرض بعشر مرات.

ثم إن الله سبحانه وتعالى يأمر ملائكة السماء الثانية فيحدثون حلقة واحدة فإذا هم مثلهم عشرين مرة، ثم تنزل ملائكة السماء الثانية فيحدقون بالكل حلقة واحدة فإذا مثلهم ثلاثين ضعفا، ثم تنزل ملائكة السماء الرابعة فيحدقون من وراء الكل فتكون حلقة واحدة أكثر منهم بأربعين ضعفا، ثم تنزل ملائكة السماء الخامسة فيحدقون من ورائهم حلقة واحدة فيكونون مثلهم خمسين مرة ثم تنزل ملائكة السماء السادسة فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة وهم مثلهم ستين مرة ثم تنزل ملائكة السماء السابعة فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة وهم مثلهم سبعين مرة.

والخلق تتداخل ويندرج بعضهم فى بعض حتى يعلو القدم ألف قدم لشدة الزحام ويخوض الناس فى العرق على أنواع مختلفة إلى الأذان وإلى الصدر وإلى الحلقوم وإلى المنكبين وإلى الركبتين ومنهم من يصيبه الرشح اليسير كالقاعد فى الحمام ومنهم من يصيبه البلل كالعطش إذا شرب الماء، وأصحاب الرأى هم أصحاب المنابر، وأصحاب الرشح هم أصحاب الكرسى، وأصحاب الكعبين قوم يموتون غرقى، والملائكة تناديهم لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون، وحدثنى بعض العارفين أنهم الأوابون كالفضيل بن عياض وغيره إذ النبى ﷺ قال: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**»، فإن دليل ذلك قول مطلق وهذه الأصناف الثلاثة أهل الرأى والرشح وأهل الكعب هم الذين تبيض وجوههم ومن دونهم تسود وجوههم.

وكيف لا يكون القلق والعرق والأرق وقد قربت الشمس من رءوسهم حتى لو أن أحداً مد يده لنالها ويضاعف حرها سبعين مرة؟

وقال بعض السلف: لو طلعت الشمس على الأرض كهيئتها يــوم القيامة لأحرقت الأرض وأذابت الصخر ونشفت الأنهار.

وبينما الخلائق يمرجون وهم فى تلك الأرض البيضاء التى ذكرها الله تعالى حيث يقول: **﴿يَــوْمَ تُبَــدَّلُ الأَرْضُ غَيْــرَ الأَرْضِ وَالسَّــمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾** [إبراهيم:٤٨]، وهم على أنواع فى المحشــر وملوك أهل الدنيا كالذر، كما روى فى الخبر فى صفة المتكبر، وليس هم كهيئة الذر عيناً، غير أن الأقدام تطأ عليهم حتى صاروا كالذر فى مذلتهم وانخفاضهم، وقوم يشربون ماء بارداً عذباً صافياً لأن الصبيان يطوفــون على آبائهم بكئوس من أنهار الجنة يسقونهم.

وعن بعض السلف الصالحين أنه نام فرأى القيامة قد قامت وكأنه فى الموقف عطشان ورأى صبياناً صغارا يسقون الناس، قال: فنــاديتهم ناولونى شربة ماء، فقال لى واحد منهم: ألك فينا ولد؟ قلت: لا، قال: فلا إذاً.

وفى هذا فضل التزويج، ولهذا الولد الساقى شروط ذكرناها فــى كتابنا "الإحياء"، وقوم قد دنا على رءوسهم ظل يمنعهم من الحر، وهــى الصدقة الطيبة، ولا يزالون كذلك ألف عام حتى إذا سمعوا نقر النــاقور الذى وصفناه فى كتابنا "الإحياء" وهو من بعض أسرار القرآن، فتوجل له القلوب وتخشع له.الأبصار لعظم نقره وتساق الــرءوس مــن المــؤمنين والكافرين يظنون ذلك عذابا يزداد فى هول يوم القيامة، فــإذا بــالعرش يحمله ثمانية أملاك، يسير قدم الملك منهم مسيرة عشــرين ألــف ســنة وأفواج الملائكة وأنوع الغمام بأصوات التسبيح لا يطيقه العقــول حتــى يستقر العرش فى تلك الأرض البيضاء التى خلقها الله تعالى لهذا الشــأن خاصة فتطرق الرءوس، وتحصر وتنحبس، وتشفق البرايــا، وترعــب

الأنبياء، وتخاف العلماء، وتفزع الأولياء والشهداء من عذاب الله الذى لا يطيقه شىء.

فبينما هم كذلك إذ غشيهم نور غلب على نور الشمس التى كانوا فى حرها، فلا يزالون يموج بعضهم فى بعض ألف عام والجليل لا يكلمهم كلمة واحدة فحينئذ تذهب الناس إلى آدم عليه السلام فيقولون: يا آدم يا أبا البشر الأمر علينا شديد.

وأما الكافر فيقول: يا رب ارحمنى ولو إلى النار، من شدة ما يرى من الهول، ويقولون: يا آدم أنت الذى خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته ونفخ فيك من روحه، اشفع لنا فى فصل القضاء فيؤمر بكل حيث يشاء سبحانه وتعالى فيفعل بهم ما يشاء فيقول: عصيت الله حيث نهانى من أكل الشجرة وأنا أستحى أن أكلمه فى هذه الحالة، ولكن اذهبوا إلى نوح عليه السلام فإنه أول المسلمين، فيقيمون ألف عام يشتورون فيما بينهم ثم يذهبون إلى نوح فيقولون له: أنت أول المرسلين، فيذكرون له مثل ذلك، ثم يطلبون منه الشفاعة فى فصل القضاء بينهم، فيقول: إننى دعوت دعوة أغرقت بها أهل الأرض وإنى أستحى من الله تعالى أن أسأله مثل ذلك، ولكن انطلقوا إلى إبراهيم خليل الله تعالى هو سماكم المسلمين من قبل فلعله يشفع لكم، فيتشاورون فيما بينهم ألف عام ثم يأتونه عليه السلام فيقولون له: يا إبراهيم يا أبا المسلمين أنت الذى اتخذك الله خليلاً فاشفع لنا إلى الله لعله يفصل فيما بين خلقه، فيقول لهم: إنى كذبت فى الإسلام ثلاث كذبات جادلت بهن عن دين الله، فأنا أستحى من الله أن أسأله الشفاعة من مثل هذا المقام، ولكن اذهبوا إلى موسى عليه السلام فإنه اتخذه الله كليماً وقربه نجياً عسى أن يشفع لكم فيتشاورون فيما بينهم ألف عام والحال يزيد شدة والموقف ضيقاً، فيأتون

موسى فيقولون له: يا بن عمران أنت الذى اتخذك الله كليماً وقربك نجياً وأنزل إليك التوراة، فاشفع لنا فى فصل القضاء فقد طال المقام واشتد الزحام وتراكمت الأقدام ونادى أهل الكفر والإسلام من طول المقام فيقول لهم موسى: إنى سألت الله تعالى أن يأخذ آل فرعون بالسنين وأن يجعلهم مثلا للآخرين وأنا أستحى من الله تعالى أن أسأله الشفاعة فى مثل هذا المقام مع أسباب جرت بينى وبينه فى المناجاة يلوح فيها تعريض الهلاك، إلا أنه ذو رحمة واسعة ورب غفور، لكن اذهبوا إلى عيسى عليه السلام فإنه أصح المرسلين يقيناً وأكثرهم معرفة بالله تعالى وأشدهم زهداً وأبلغهم حكمة فلعله يشفع لكم، فيتشاورون فيما بينهم ألف عام والحال يزيد شدة والموقف يزداد ضيقاً وهم يقولون: حتى متى نحن من رسول إلى رسول ومن كريم إلى كريم؟ فيأتون عيسى عليه السلام فيقولون له: أنت روح الله وكلمته وأنت الذى سماك الله وجيهاً فى الدنيا والآخرة اشفع لنا إلى ربك فى فصل القضاء فيقول: إن قومى اتخذونى وأمى إلهين من دون الله فكيف أشفع عند من عبدت معه وسميت له ابناً وسمى لى أباً؟ ولكن أرأيتم لو كان لأحدكم كيس فيه نفقة وعليه خاتم أكان يبلغ إلى ما فى الكيس حتى يفض الخاتم؟ قالوا: نعم يا نبى الله، قال لهم: اذهبوا إلى سيد المرسلين وخاتم النبيين أخى العرب؛ فإنه ادخر دعوته شفاعة لأمتهِ وكثيراً ما آذاه قومه، شجوا جبينه وكسروا رباعيته وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً وإنه لأحسنهم فخاراً وأكبرهم شرفاً وهو يقول كما قال الصديق لإخوته: **﴿قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾** [يوسف:٩٢] وجعل يتلو عليهم من فضائله ﷺ مالم تمجه آذانهم حتى امتلأت نفوسهم حرصاً على الذهاب إليه، فساروا حتى أتوا إلى منبره ﷺ وقالوا له أنت حبيب الله والحبيب أوجه الوسائط، اشفع

لنا إلى ربك فقد ذهبنا إلى أبينا آدم فأحالنا على نوح فذهبنا إلى نوح فأحالنا على إبراهيم وذهبنا إلى إبراهيم فأحالنا على موسى فذهبنا إلى موسى فأحالنا على عيسى وذهبنا إلى عيسى فأحالنا عليك صلى الله عليك وسلم، وليس بعدك مطلب ولا عنك مهرب، فيقول ﷺ: أنا لها حتى يأذن الله لمن يشاء ويرضى، ثم ينطلق ﷺ إلى سرادقات الجلال فيستأذن فيؤذن له، ثم يرفع الحجاب ويلج إلى العرش ويخر ساجداً يمكث فيها ألفاً، ثم يحمد الله تعالى بمحامد ما حمده بها أحد قط، قال بعض العارفين: إن تلك المحامد التى أثنى الله بها على نفسه يوم فراغه من خلقه، فيتحرك العرش تعظيماً وقد حاز صحيفة من الصحف التى تقدم ذكرها فى "الإحياء".

والناس فى تلك المدة قد ضاق مكانهم وساءت أحوالهم وترادفت أهوالهم، وقد طوق كل واحد منهم ما بخل به فى الدنيا، فمانع زكاة الإبل يحمل بعيراً على كاهله له رغاء وثقل يعدل الجبل العظيم، ومانع زكاة البقر يحمل ثوراً على كاهله له خوار وثقل يعدل الجبل العظيم والرغاء والخوار كالرعد القصف، ومانع زكاة الزرع يحمل على كاهله أعدالا قد ملئت من الجنس الذى كان يبخل به براً كان أو شعيراً أثقل ما يكون ينادى تحته بالويل والثبور، ومانع زكاة المال يحمل شجاعاً أقرع له زبيبتان وذنبه قد صب فى منخره واستدار بجيده وثقل على كاهله حتى كأنه طوق به كل رحى فى الأرض، وكل واحد ينادى: ما هذا؟ فتقول لهم الملائكة: هذا ما بخلتم به رغبة فيه وشحاً عليه، وهو قوله تعالى: ﴿**سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ [آل عمران:١٨٠]، وآخرون قد عظمت فروجهم وهى تسيل صديداً تتأذى بنتنها جيرانهم، وآخرون قد صلبوا على جذوع النيران، وآخرون قد خرجت ألسنتهم على صدورهم

أقبح ما يكون، وهم الزناة واللاطة والكاذبون، وآخرون قد عظمت بطونهم كالجبال الرواسى، وهم آكلوا الربا، وكل ذى ذنب قد بدا سوء ذنبه ظاهراً عليه.

فصل

فينادى الجليل جل جلاله: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك واشفع تشفع فيقول ﷺ: يا رب افصل بين عبادك فقد طال مقامهم وقد فصح كل واحد بذنبه فى عرصات يوم القيامة، فيأتى النداء: نعم يا محمد، ويأمر الله بالجنة فتزخرف ويؤتى بها ولها نسيم طيب أعبق ما يكون وأزكى فيوجد ريحها من مسيرة خمسمائة عام فتبرد القلوب وتحيا النفوس إلا من كانت أعمالهم خبيثة فإنهم منعوا من ريحها، فتوضع عن يمين العرش، ثم يأمر الله تعالى أن يؤتى بالنار فترعب وتفزع وتقول للمرسلين إليها من الملائكة: أتعلمون أن الله خلق خلقاً يعذبنى به؟ فيقولون لا وعزته وإنما أرسل إليك لتنتقمى من عصاة ربك، ولمثل هذا اليوم خلقت، فيأتون بها تمشى على أربع قوائم تقاد بسبعين ألف زمام فى كل زمام سبعون ألف حلقة لو جمع حديد الدنيا كله ما عدل منها حلقة واحدة على كل حلقة سبعون ألف زبانى، لو أمر زبانى منهم أن يدك الجبال لدكها وأن يهد الأرض لهدها، وإذا لها شهيق ودوى وشرر ودخان تفور حتى تسد الأفق ظلمة، فإذا كان بينها وبين الخلق مقدار ألف عام انفلتت من أيدى الزبانية حتى تأتى إلى أهل الموقف ولها صلصلة وتصفيق وسحيق، فيقال: ما هذا؟ فيقال: جهنم انفلتت من أيدى سائقيها ولم يقدروا على إمسكاها لعظم شأنها فيجثو الكل على الركب حتى المتوسلون ويتعلق إبراهيم وموسى وعيسى بالعرش هذا قد نسى الذبيح وهذا قد نسى هرون وهذا قد نسى مريم، ويجعل كل واحد منهم يقول: يا رب نفسى لا أسألك اليوم غيرها، وهو الأصح عندى، ومحمد عليه الصلاة والسلام يقول: أمتى أمتى، سلمها ونجها يا رب، وليس فى

الموقف من تحمله ركبتاه وهو قوله تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٨].

وعند تفلتها تكبو من الحنق والغيظ وهو قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢]، أى تعظيماً وحنقاً، يقول سبحانه وتعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ [الملك:٨]، أى: تكاد تنشق نصفين من شدة غيظها فيبرز ﷺ ويأخذ بخطامها ويقول لها: ارجعى مدحورة إلى خلفك حتى تأتيك أفواجك، فتقول: خل سبيلى فإنك يا محمد حرام، فينادى مناد من سرادقات العرش: اسمعى منه وأطيعى له، ثم تجذب وتجعل عن شمال العرش ويتحدث أهل الموقف بجذبها فيخف وجلهم وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

فهنالك ينصب الميزان وهو كفتان: كفة من نور عن يمين العرش وكفة عن يساره من ظلمة، ثم يكشف الجليل عن ساقه فيسجد الناس تعظيماً له وتواضعاً إلا الكفار فإن أصلابهم تعود حديداً فلا يقدرون على السجود وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢].

وروى البخارى فى تفسيره مسندا إلى رسول الله ﷺ قال: «**يكشف الله عن ساقه يوم القيامة فيسجد كل مؤمن ومؤمنة**» وقد أشفقت من تأويل الحديث وعدلت عن منكريه وكذا أشفقت من ذكر صفة الميزان وزينت قول واضعيه بالمثل وجعلته محيزاً إلى العالم الملكوتى فإن الحسنات والسيئات أعراض، ولا يصح وزن الأعراض إلا بالميزان الملكوتى، فبينما الناس ساجدون إذ نادى الجليل بصوت يسمعه منْ بَعْد

كما يسمعه مَنْ قَرُبَ: أنا الملك، أنا الديان - حكاه البخارى - لا يجاوزنى ظلم ظالم، فإن جاوزنى فأنا الظالم، ثم يحكم بين البهائم ويقتص للجماء من القرناء ويفصل بين الوحش والطير، ثم يقول لهم: كونوا تراباً فتسوى بهم الأرض ويتمنى الكافر فيقول: ﴿**يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا**﴾ [النبأ:٤٠] ثم يخرج النداء من قبل الله: أين اللوح المحفوظ؟ فيرى به هوج عظيم، فيقول الله: أين ما سطرت فيك من توراة وإنجيل وفرقان؟ فيقول: سلبنى الروح الأمين، فيؤتى به يرعد وتصطك ركبتاه، فيقول الله: يا جبريل هذا اللوح يزعم أنك نقلت منه كلامى ووحيى، أصدق؟ فيقول: نعم يا رب، فيقول له: فما فعلت فيه؟ فيقول: أنهيت التوراة إلى موسى والإنجيل إلى عيسى، والفرقان إلى محمد ﷺ وأنهيت إلى كل رسول رسالته، وإلى أهل الصحف صحائفهم، فإذا بالنداء: يا نوح، فيؤتى به يرعد وتصطك فرائصه.

فيقول له: يا نوح زعم جبريل أنك من المرسلين، قال: صدق فيقول له: ما فعلت مع قومك؟ قال: دعوتهم ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائى إلا فراراً، فإذا بالنداء: يا قوم نوح، فيؤتى بهم زمرة واحدة فيقال: هذا أخوكم نوح يزعم أنه بلغكم الرسالة فيقولون: يا ربنا كذب ما بلغنا من شىء، وينكرون الرسالة فيقول الله: يا نوح ألك بينة عليهم؟ فيقول: نعم يا رب بينتى عليهم محمد وأمته، فيؤتى بالنبى، فيقول الله عز وجل: يا محمد، هذا نوح يستشهدك، فيشهد له بتبليغ الرسالة ويقرأ ﷺ، ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [نوح:١] فيقول الجليل: قد وجب عليكم الحق وحقت عليكم كلمة العذاب؛ فقد حقت على الكافرين، فيؤمر بهم زمرة واحدة إلى النار من غير وزن عمل ولا

حساب، ثم ينادى: أين عاد؟ فيفعل قوم هود مع هود كما فُعِلَ مع نوح فيشهد عليهم النبى وخيار أمته فيتلو: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٢٣]، فيؤمر بهم إلى النار، ثم ينادى: يا صالح، ويا ثمود فيأتون، فيستشهدون عندما ينكرون النبى ﷺ فيتلو: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٤١]، إلى آخر القصة فيفعل بهم مثلهم ولا يزال يخرج أمة بعد أمة قد أخبر عنهم القرآن بياناً وذكرهم فيه إشارة كقوله تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً﴾ [الفرقان:٣٨]، وقوله ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون:٤٤]، وقوله ﴿وَالَّذِينَ من بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ [إبراهيم:٩]، وفى هذا تنبيه على أولئك القرون الطاغية كقوم يارخ ومارخ ودوح واسر، وما أشبه ذلك، حتى ينتهى النداء إلى أصحاب الرس وتبع وقوم إبراهيم، وفى كل ذلك لا يروج - أى يرتفع - لهم ميزان، ولا يوضع لهم حساب، وهم عن ربهم يومئذ محجوبون، والترجمان يكلمهم؛ لأن من نظر إليه الله وكلمه لم يعذب ثم ينادى بموسى فيأتى وهو كأنه ورقة فى ريح عاصف فيقول له: يا موسى إن جبريل زعم أنك بلغت الرسالة والتوراة أفتشهد له بالبلاغ؟ قال: نعم، قال: فارجع إلى منبرك واتل ما أوحى إليك فيرقى المنبر ويقرأ، فينصت كل من فى الموقف، فيأتى بالتوراة غضة طرية على حسبها يوم أنزلت، حتى يتوهم الأحبار أنهم ما عرفوها يوماً، ثم ينادى: يا داود، فيأتى وهو يرعد كأنه ورقة فى ريح عاصف، ويقول جل ثناؤه: يا داود زعم جبريل أنه بلغك الزبور أفتشهد له بالبلاغ؟ فيقول: نعم يا رب، فيقول له: ارجع إلى منبرك واتل ما أوحى إليك، فيرقى ويقرأ وهو أحسن صوتاً.

وفى الصحيح أنه صاحب مزامير أهل الجنة فيسمع صوته أمام تابوت السكينة فيقتحم الجموع ويتخطى الصفوف حتى يصل إلى داود فيتعلق به فيقول: أما وعظك الزبور حتى نويت لى شراً؟ فيخجله ويسكته مفحماً فيرتج الموقف لما يرى الناس من شأن داود عليه السلام، ثم يتعلق به فيسوقه إلى الله، فيرخى عليهم الستر، فيقول: يا رب أنصفنى منه فإنه تعمدنى بالهلاك وجعلنى أقاتل حتى قتلت، وتزوج امرأتى وعنده يومئذ تسع وتسعون امرأه غيرها، فيلتفت الجليل إلى داود فيقول له: أصدق فيما يقول؟ فيقول له: نعم يا رب وهو منكس رأسه حياء وتوقعاً لما ينزل به من العذاب ورجاء فيما وعده الله من المغفرة، فكان إذا خاف نكس رأسه وإذا طمع ورجا رفعه، فيقول الله تعالى: قد عوضتك عن ذلك كذا وكذا من القصور والولدان، فيقول: رضيت يا رب، ثم يقول لداود: اذهب قد غفرت لك وكذا شأنه سبحانه وتعالى مع من أكرمه، يعطيه من سعة رفده وعظيم عفوه، ثم يقول له: ارجع إلى منبرك واقرأ بما بقى من الزبور فيفعل حينئذ، فيؤمر ببنى إسرائيل أن ينقسموا قسمين: قسم مع المؤمنين وقسم من المجرمين.

ثم ينادى المنادى: أين عيسى بن مريم؟ فيؤتى به فيقول له: أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله؟ فيحمد ما شاء الله ويثنى عليه كثيراً، ثم يعطف على نفسه بالذم والاحتقار، ويقول: ﴿**سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ**﴾ [المائدة:١١٦].

فيضحك الله تعالى ويقول ﴿**قَالَ اللّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ**﴾ [المائدة:١١٩] صدقت يا عيسى، ارجع إلى منبرك واتل الإنجيل

الذى بلغك جبريل، فيقول: نعم، ثم يقرأ فتشخص إليه الرءوس من حسن ترديده وترجيعه، فإنه أحكم الناس به رواية، فيأتى به غضاً طرياً حتى يظن الرهبان أنهم ما علموا منه آية قط، ثم ينقسم النصارى فرقتين: المجرمون مع المجرمين والمؤمنون مع المؤمنين ثم يخرج النداء: أين محمد؟ فيؤتى به ﷺ فيقول له: يا محمد، هذا جبريل يزعم أنه بلغك القرآن فيقول: نعم يا رب، فيقال له: ارجع إلى منبرك واقرأ فيتلو ﷺ القرآن فيأتى به غضا طرياً عليه حلاوة يستبشر بها المتقون وإذا وجوههم ضاحكة مستبشرة والمجرمون وجوههم مغبرة ويستدل على السؤال المتقدم للرسل والأمم بقوله تعالى: ﴿**فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [الأعراف:٦]، وقيل بقوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ**﴾ [المائدة:١٠٩]، والأول أصح حكيناه فى "الإحياء" لأن الرسل يتفاضلون والمسيح عليه السلام من أجَلّهم؛ لأنه روح الله وكلمته، فإذا تلا النبى ﷺ القرآن توهمت الأمة أنهم ما سمعوه قط.

وقد قالوا للأصمعى: تزعم أنك أحفظهم لكتاب الله تعالى، قال: يا ابن أخى يوم أسمعه من النبى ﷺ كأنى ما سمعته قط.

فإذا فرغت قراءة الكتب خرج النداء من قبل سرادقات الجلال: ﴿**وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ**﴾ [يس:٥٩] فيرتج الموقف ويقوم فيه روع عظيم، والملائكة قد امتزجت بالجن، والجن ببنى آدم، ولج الكل لجة واحدة، ثم يخرج النداء: يا آدم ابعث من بنيك بعثاً إلى النار، فيقول: كم يا رب؟ فيقول له: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحداً إلى الجنة، فلا يزال يستخرج من سائر الملحدين والغافلين

والفاسقين حتى لا يبقى إلا قدر حفنة الرب كما قال الصديق "نحو حفنة من حفنات الرب".

ثم يقرب اللعين بالشياطين[1] فمنهم من يزيغ لـه الميـزان فـإذا سيئاته ترجح على حسناته وكل من وصلت له الشريعة لابـد لـه مـن الميزان، فإذا اعتزلوا وأيقنوا أنهم هالكون قالوا آدم: ظلمنا ومكن الزبانية من نواصينا فإذا النداء من قبل الله تعالى: **﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾** [غافر:١٧] فيستخرج لهم كتاب عظـيم يسـد بـين المشـرق والمغرب فيه جميع أعمال الخلائق، فمـا مـن صـغيرة ولا كبيـرة إلا أحصاها، ولا يظلم ربك أحداً، وذلك أن أعمال الخلائق كل يوم تعـرض على الله فيأمر الكرام البررة أن ينسخوها فى ذلك الكتاب العظـيم وهـو قوله تعالى: **﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** [الجاثية:٢٩].

ثم ينادى بهم فرداً فرداً فيحاسب كل واحد منهم، فإذا الأقدام تشهد واليدان تشهدان وهو قوله تعالى: **﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [النور:٢٤]، وقد جاء فى الخبر أن رجـلا منهم يوقف بين يدى الله تعالى فيقول له: يا عبد السـوء كنـت مجرمـا عاصياً، فيقول: ما فعلت، فيقال له: عليك ببينة، فيؤتى بحفظتـه فيقـول: كذبوا علىَّ، ويجادل عن نفسه، وهو قوله تعالى: **﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾** [النحل:١١١]، ويختم على فيه، وهو قوله تعالى: **﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** [يس:٦٥]، فتشهد جوارحه عليه فيؤمر به إلى النار، فيجعل يلوم جوارحه، فتقول له:

---

[1] هكذا فى الأصل، ولا أجد له معنىً.اهـ. مصححه.

ليس عن اختيارنا ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت:٢١]، ثم يدفعون بعد الفراغ إلى خزنة جهنم، فترتج أصواتهم بالبكاء والضجيج، ويكون لهم رجة عظيمة حين يعرض الموحدون المؤمنون فتحدق بهم الملائكة تلقى كل واحد منهم بقول: ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٣].

والفزع الأكبر فى أربعة مواضع: عند نقر الناقور، وعند تفلت جهنم من الخزنة، وعند إخراج بعث آدم، وعند دفعهم إلى الخزنة.

فإذا بقى الموقف ليس فيه إلا المؤمنون والمسلمون المحسنون والعارفون والصديقون والشهداء والصالحون والمرسلون ليس فيهم مرتاب ولا منافق ولا زنديق يقول الله تعالى: يا أهل الموقف من ربكم؟ فيقولون: الله، فيقول لهم: تعرفونه؟ فيقولون: نعم، فيتجلى لهم ملك عن يسار العرش لو جعلت البحار السبعة فى نقرة إبهامه ما ظهرت فيقول لهم: أنا ربكم – بأمر الله – فيقولون: نعوذ بالله منك، فيتجلى لهم ملك عن يمين العرش لو جعلت البحار الأربعة عشر فى نقرة ابهامه ما ظهرت، فيقول لهم: أنا ربكم فيتعوذون بالله منه، ثم يتجلى لهم الله تعالى فى الصورة التى كانوا يعرفونها وسمعوه وهو يضحك فيسجدون له جميعهم، فيقول: أهلاً بكم، ثم ينطلق بهم سبحانه إلى الجنة، فيتبعونه فيمر بهم على الصراط والناس أفواج، أعنى المرسلين ثم النبيين ثم الصديقين ثم المحسنين ثم الشهداء ثم المؤمنين ثم العارفين، ويبقى المسلمون منهم المكبوب على وجهه، ومنهم المحبوس فى الأعراف ومنهم قوم قصروا عن تمام الإيمان ومنهم من يجوز الصراط على مائة عام، وآخر يجوز على ألف عام ومع ذلك كله لم تحرق النار كل من رأى ربه عياناً لا يضام فى رؤيته، وأما المسلم والمحسن والمؤمن فقد

كشفنا عن مقام كل واحد منهم فى كتابنا المسمى "بالاستدراج" وهم فى زمرة الانطلاق قد كثر مرورهم وترددهم بالجوع والعطش قد تفتتت أكبادهم، لهم نفس كالدخان يشربون من الحوض بكئوس عدد نجوم السماء، وماؤه من نهر الكوثر، وقدره من إيلياء إلى صنعاء طولاً وعرضه من عدن إلى يثرب، وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «**منبرى على حوضى**»، أى: على أحد حافتيه فى المكيال والمقدار، والمذادون عنه هم المشتغلون فى حبس الصراط بمساوئ قبائح ذنوبهم، فكم من متوضئ لا يحسن أن يسبغ[1] فى وضوئه، وكم من مصل لم يسأل عن صلاته اتخذ صلاته حكاية قد عريت من الخضوع والخشوع، لو قرصه نملة لالتفت، والعارفون بجلال الله لو قطعت أيديهم وأرجلهم ما أرتجوا لذلك، شغلتهم الهيبة والفكرة لعلمهم بقدر من قاموا بين يديه، فربما رجل لسعته العقرب فى مجلس أمير من الأمراء لم يتحرك صبراً عليها وتعظيماً للأمير فى المجلس، فهذه حالة الآدميين مع مخلوق لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فكيف بحال من يكون قائماً بين يدى الله عز وجل وهيبته وسلطانه وعظمته وجبروته؟

وحكى الظالم العارف أنه يؤتى به إلى الله تعالى فتخرج عليه المظالم ويتعلق به المظلوم فيقول له: التفت أيها المظلوم فوق رأسك، فإذا بقصر عظيم تحار فيه الأبصار فيقول: ما هذا يا رب؟ فيقول: إنه للبيع فاشتره منى، فيقول: ليس معى ثمنه، فيقول: إن ثمن هذا أن تبرئ مظلمة أخيك فالقصر لك، فيقول: قد فعلت يا رب، هكذا يفعل الله بالظالمين الأوابين، وهو قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا**﴾ [الإسراء:٢٥]

---

(١) فى الأصل: يسغ، ولعل الصواب ما أثبتناه. اهـ.

والأواب: الذى أقلع عن الذنب فلم يعد أبداً، وقد سمى داود عليه الســـلام أواباً وغيره من المرسلين.

فصل فى كيفية دعاء أهل الموقف

وذكر الاختلاف فيما جاء فى تفسيره، وفى الصحيح أن أول ما يقضى الله تعالى فى الدماء، وأول من يعطى الله أجورهم الذين ذهب أبصارهم، نعم ينادى يوم القيامة بالمكفوفين فيقال لهم: أنتم أحرى أى أحق من ينظر إليه، ثم يستحى الله منهم فيقول لهم: اذهبوا إلى ذات اليمين ويعقد لهم راية وتجعل فى يد شعيب عليه السلام فيصير أمامهم ومعهم من ملائكة النور مالا يحصى عددهم إلا الله يزفونهم كما تزف العروس فيمر بهم على الصراط كالبرق الخاطف، وصفة أحدهم فى الصبر والحلم كابن عباس ومن ضاهاه من هذه الأمة.

ثم ينادى: أين أهل البلاء – ويريد المجذومين – فيؤتى بهم فيحييهم الله بتحية طيبة بالغة، فيؤمر بهم إلى ذات اليمين، ويعقد لهم راية خضراء وتجعل بيد أيوب عليه السلام، فيصير أمامهم إلى ذات اليمين، وصفة المبتلى صبر وحلم، كعقيل بن أبى طالب ومن ضاهاه من هذه الأمة.

ثم ينادى: أين الشباب المتعففون؟ فيؤتى بهم إلى الله، فيرحب بهم ويقول ما شاء الله أن يقول، ثم يأمر بهم إلى ذات اليمين ويعقد لهم راية خضراء ثم تجعل فى يد يوسف عليه السلام ويصير أمامهم إلى ذات اليمين، وصفة الشباب صبر وحلم كراشد بن سليمان ومن ضاهاه من هذه الأمة.

ثم يخرج النداء: أين المتحابون فى الله؟ فيؤتى بهم إلى الله فيرحب بهم ويقول ماشاء الله، ثم يأمر بهم إلى ذات اليمين، وصفة المتحابين فى

ـــابى

تراب - أعنى على بن أبى طالب رضى الله عنه - ومن ضاهاه من هذه الأمة.

ثم يخرج النداء: أين الباكون من خشية الله؟ فيؤتى بهم إلى الله فتوزن دموعهم ودماء الشهداء ومداد العلماء، فيرجح الدمع، فيؤمر بهم إلى ذات اليمين، ويعقد لهم راية ملونة لأنهم بكوا فى أنواع مختلفة: هذا بكى خوفاً وهذا بكى طمعاً وهذا بكى ندماً وتجعل بيد نوح عليه السلام فتهم العلماء بالتقدم عليهم ويقولون: علمنا أبكاهم، فإذا النداء على رسلك يا نوح، فتوقف الزمرة، ثم يوزن مداد العلماء ودم الشهداء فيرجح دم الشهداء على مداد العلماء، فيؤمر بهم إلى ذات اليمين ويعقد لهم راية مزعفرة وتجعل فى يد يحيى، ثم ينطلق أمامهم، فهم العلماء بالتقدم ويقولون: عن علمنا قاتلوا، نحن أحق منهم بالتقدم، فيضحك الله عز وجل ويقول: هم عندى كأنبيائى، اشفعوا فيمن تشاءون، فيشفع العالم فى أهل بيته وجيرانه وإخوانه ويأمر كل واحد منهم ملكاً ينادى فى الناس ألا إن فلاناً العالم قد أمره الله أن يشفع فيمن قضى له حاجة أو أطعمه لقمة أو سقاه شربة ماء حين عطش، فيقوم إليه من فعل معه شيئاً من ذلك فيشفع له.

وفى الصحيح أن أول ما يشفع المرسلون ثم النبيون ثم العلماء ويعقد لهم راية بيضاء تجعل فى يد إبراهيم عليه السلام فإنه أشد المرسلين مكاشفة ونضرب عن هذا الفن.

ثم ينادى مناد: أين الفقراء؟ فيؤتى بهم إلى الله تعالى، فيقول لهم: مرحبا بمن كانت الدنيا سجنهم، ثم يأمر بهم إلى ذات اليمين، وتعقد لهم راية صفراء وتجعل فى يد عيسى عليه السلام ويصير أمامهم إلى ذات اليمين.

ثم ينادى: أين الأغنياء؟ فيؤتى بهم إلى الله تعالى، فيعدد لهم ما خولهم خمسمائة عام ثم يأمر بهم إلى ذات اليمين وتعقد لهم راية ملونة وتجعل بيد سليمان عليه السلام ويصير أمامهم إلى ذات اليمين.

وفى الحديث أن أربعة يستشهد عليهم بأربعة: ينادى بالأغنياء وأهل الغبطة فيقال لهم: ما شغلكم عن عبادة الله؟ فيقولون: أعطانا ملكاً وغبطة شغلتنا عن القيام بحقه، فيقال: من أعظم ملكاً أنتم أم سليمان؟ فيقولون: سليمان، فيقال: ما شغله ذلك عن القيام بحقى.

ثم يقال: أين أهل البلاء؟ فيؤتى بهم، فيقولون لهم: أى شىء شغلكم عن عبادة الله؟ فيقولون: ابتلانا الله فى الدنيا، فشغلنا عن ذكره والقيام بحقه، فيقال لهم: من أشد بلاء أنتم أم أيوب؟ فيقولون: أيوب فيقال لهم: ما شغله ذلك عن القيام بحق الله.

ثم ينادى: أين الشباب والمماليك؟ فيؤتى بهم، فيقال لهم: ما شغلكم عن عبادة الله؟ فيقولون: أعطانا جمالاً وحسناً فتنا به، فكنا مشغولين عن القيام بحقه، وتقول المماليك: شغلنا رق العبودية، فيقال لهم: أنتم أكثر جمالاً أم يوسف؟ فيقولون: يوسف، فيقال لهم: ما شغله ذلك وهو فى الرق عن القيام بحق الله.

ثم ينادى: أين الفقراء؟ فيؤتى بهم، فيقال لهم: ما شغلكم عن القيام بحق الله؟ فيقولون: ابتلانا فى الدنيا بفقر شغلنا عن القيام بحق الله، فيقال لهم: من أشد فقراً عيسى أم أنتم؟ فيقولون: عيسى، فيقال: ما شغله عن ذكرنا، فمن ابتلى بشىء من هذه الأربع فليذكر صاحبه، وقد كان ﷺ يقول فى دعائه: اللهم إنى أعوذ بك من فتنة الغنى والفقر، فاعتبروا بالمسيح، فقد صح أنه ما كان يملك شيئاً قط، وقد لبس جبة صوف عشرين سنة وما كان له فى سياحته إلا كوز وسبحة ومشط، فرأى يوما

رجلاً يشرب بيده فرمى الكوز ولم يمسكه بعد، ورأى رجلا آخر يخلل لحيته بيده فرمى المشط من يده ولم يمسكه بعد، وكان يقول عليه السلام: دابتى رجلاى، وبيوتى كهوف الأرض، وطعامى نباتها، وشرابى أنهارها وفى بعض الصحف المنزلة: يا بن آدم[١] حسنة وسيئة من أنواع الحياة والقتل متعمدا والخطأ أيضاً إذا استهين بكفارته ولم يقتص فاحذرهما فإنهما فعل عظيم، والكبائر قد يرجى لصاحبها الشفاعة بعد التخليص فأكرمهم يخرج من النار بعد ألف سنة وقد امتحش، وكان الحسن البصرى – رحمه الله تعالى – يقول فى كلامه: ياليتنى ذلك الرجل، ولا شك أنه كان – رحمه الله تعالى – عالما بأحكام الآخرة.

ويؤتى يوم القيامة برجل لم يجد حسنة ترجح بها ميزانه أو قد اعتدلت بالسوية فيقول الله تعالى له رحمة منه: اذهب فى الناس من يعطيك حسنة أدخلك بها الجنة، فيسير يجوس خلال الناس فما يجد أحدا يكلمه فى ذلك، وكل من كلمه وسأله يقول: أخشى أن يخف ميزانى، أنا أحوج إليها منك فييأس، فيقول له رجل: ما الذى تطلب؟ فيقول له: حسنة واحدة، فلقد مررت بقوم لهم منها ألوف فبخلوا على، فيقول له الرجل: لقد لقيت الله تعالى فما وجدت فى صحيفتى إلا حسنة واحدة وما أظن أنها تغنى عنى، سيأخذها هبة منى إليك فينطلق بها فرحاً مسروراً، فيقول الله له: كيف جاء لك – وهو سبحانه أعلم؟ فيقول ما كان منه مع الرجل فيدعى بالرجل الذى أعطاه الحسنة فيقول الله تعالى: كرمى أوسع من كرمك، خذ بيد أخيك وانطلق به إلى الجنة.

---

[١] قوله يا بن آدم حسن إلخ، لعل أصل العبارة يا بن آدم أنت مجزى بعملك حسنة وسيئة فى مده الحياة كالقتل متعمدا إلخ. اهـ.

وإذا استوى كفتا الميزان لرجل فيقول الله: لاهو من أهل الجنة ولا هو من أهل النار، فيأتى الملك بصحيفة يضعها فى كفة السيئات فيها مكتوب: أف، فترجح على الحسنة لأنها كلمة عقوق، فيؤمر به إلى النار فيلتفت الرجل ويطلب أن يرده الله إليه، فيقول: ردوه، ثم يقول له: أيها العبد العاق لأى شيء تطلب الرد؟ فيقول: إلهى، إنى رأيت أنى سائر إلى النار لا بد لى منها، وكنت عاقاً لأبى فضعف علىَّ عذابَ أبى وأنقذه منها، قال: فيضحك الله ويقول: عققته فى الدنيا وبررته فى الآخرة، خذ بيد أبيك وانطلق به إلى الجنة، فما من أحد يُذْهَب به إلى النار إلا والملائكة توقفه لعلمهم بسر أحكام الآخرة، حتى لقد ينادى بقوم لا خلاق لهم خلقوا حطباً لها وحشواً، فيقال: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات:٢٤] فتحبس تلك الزمرة حتى يخرج النداء فيهم، ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات:٢٥] فيستسلمون ويعترفون بالذنب كما قال الله تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ [الملك:١١] فيدفعون دفعة واحدة إلى النار وكذا يؤتى بأهل الكبائر من الأمة شيوخاً وعجائز ونساء وشباناً، فإذا نظر إليهم مالك خازن جهنم قال: أنتم معاشر الأشقياء، مالى أرى أيديكم لا تغسل ولم تسود وجوهكم[1] ما ورد على أحسن حالا منكم، فيقولون: يا مالك نحن أشقياء أمة محمد دعنا نبكى على ذنوبنا، فيقول لهم: ابكوا، فلن ينفعكم البكاء، فكم من شيخ وضع يده على لحيته يقول: واشيبتاه واطول حزناه، وكم من كهل ينادى: واطول مصيبتاه واذل مقاماه، وكم من شاب ينادى: واشباباه، وكم من امرأة قد قبضت على شعرها وهى تنادى: واسوأتاه وافضيحتاه، فإذا النداء من قبل الله تعالى: يا مالك أدخلهم

---

[1] هكذا فى الأصل.

النار من الباب الأول، فإذا همت النار أن تأخذهم يقولون بأجمعهم: لا إله إلا الله، فتفر النار منهم مسيرة خمسمائة عام فيأخذون فى البكاء، وإذا النداء: يا نار خذيهم، يا مالك أدخلهم الباب الأول فعند ذلك يسمع صلصلة كصلصلة الرعد فإذا النار همت أن تحرق القلوب زجرها مالك وجعل يقول لا تحرقى قلباً فيه القرآن وكان وعاء للإيمان ولا تحرقى جباهاً سجدت للرحمن فيعودون فيها، وإذا برجل يعلو صوته على صوت أهل النار فيخرج وقد امتحش فيقول الله له: مالك أكثر أهل النار صياحاً؟ فيقول: يا رب حاسبتنى ولم أقنط من رحمتك وعلمت أنك تسمعنى فأكثرت الصياح، فيقول الله تعالى: **﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ﴾** [الحجر:٥٦]، اذهب فقد غفرت لك، وكذا يخرج من النار فيقول الله له: خرجت من النار فبأى عمل تدخل الجنة؟ فيقول: يا رب ما أسألك منها إلا يسيراً، فترفع له شجرة منها، فيقول الله: أرأيت إن أعطيتك هذه الشجرة تسألنى غيرها؟ فيقول: لا وعزتك يا رب، فيقول الله: هى هبة منى إليك، فإذا أكل منها واستظل بظلها رفعت له شجرة أخرى أحسن منها، فيجعل يكثر النظر إليها، فيقول الله تعالى: مالك؟ لعلك أحببتها، فيقول: نعم يا رب، فيقول له: إن أعطيتك إياها هل تسألنى غيرها؟ فيقول لا يا رب، فإذا أكل منها واستظل بظلها رفعت له شجرة أحسن منها، فيجعل ينظر إليها، فيقول الله له: إن أعطيتك إياها تسألنى غيرها؟ فيقول لا وعزتك يا رب لا أسألك غيرها، فيضحك الله عز وجل فيدخله الجنة.

ومن غريب حكم الآخرة أن الرجل يؤتى به إلى الله فيحاسبه ويوبخه وتوزن له حسناته وسيئاته، وهو فى ذلك كله يظن يقيناً أن الله ما اشتغل إلا بحسابه ووزنه ولعل فى تلك اللحظة حاسب فيها آلاف ألوف

مالا يحصى عدتهم إلا الله، كل منهم يظن أن الحساب له وحده، وكذا لا يرى بعضهم بعضاً ولا يسمع أحدهم كلام الآخر بل كل واحد تحت أستاره، فسبحان مَنْ هذا شأنُهُ وهو قوله تعالى: ﴿**مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾ [لقمان:٢٨]، وفى قوله سر عجيب من أسرار الملكوت إذ ليس لملكه حد محدود، فسبحان مالا يشغله شأن عن شأن، وفى هذه الحالة يأتى الرجل إلى ولده فيقول له: يا بنى إنى كسوتك حيث لا تقدر تكسو نفسك، وأطعمتك طعاماً وسقيتك شراباً حيث كنت عاجزاً عن ذلك وكفلتك صغيراً حيث كنت لا تستطيع دفع الضراء ولا جلب السراء، فكم من فاكهة تمنيتها فابتعتها لك، حسبك ما ترى من هول يوم القيامة وسيئات أبيك كثيرة فتحمل عنى منها ولو سيئة فيخف عنى، وأعطنى ولو حسنة أزيدها فى الميزان، فيفر منه الولد ويقول له: أنا أحوج منك إليها وكذا يفعل الفصل مع الفصيلة والصاحب والأخ وهو قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ**﴾[عبس:٣٤-٣٦].

وفى الحديث: «**يحشر الناس عراة**» قالت عائشة - رضى الله عنها - واسوأتاه ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقرأ النبى ﷺ: ﴿**لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ**﴾ [عبس:٣٧]، إن شدة الهول وعظم الكرب تشغلهم أن ينظر بعضهم إلى بعض.

فإذا استقر الناس فى صعيد واحد طلعت عليهم سحابة سوداء فأمطرتهم صحفاً منشرة، فإذا صحيفة المؤمن ورقة وَرْد، وإذا صحيفة الكافر ورقة سِدْر والكل مكتوب، فتتطاير الصحف فإذا هى بالميامن والمياسر، وليس عن اختيار وإنما هى تقع بيمينه وبشماله، وهو قوله تعالى: ﴿**وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا**﴾ [الإسراء:١٣].

وحكى بعض السلف من أهل التصنيف أن الحوض يورد بعد جواز الصراط، وهو غلط من قائله، فإنه لعين برده من قد جاز الصراط[١] ففى السبعة جسور يهلك الناس.

والسبعون ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب لا يرفع لهم ميزان ولا يأخذون صحفاً، وإنما هى براءة مكتوب فيها: لا إله إلا الله محمد رسول الله، هذه براءةِ فلان ابن فلان بدخول الجنة ونجاته من النار، فإذا غفرت له ذنوبه أخذ الملك بعضده وجاس به خلال الموقف ونادى: هذا فلان ابن فلانة قد غفر الله له ذنوبه وسعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا، فما مر عليه شيء أسر من ذلك المقام، والرسل يوم القيامة على المنابر والأنبياء والعلماء على منابر صغار، ومنبر كل رسول على قدره والعلماء العاملون على كراسى من نور، والشهداء والصالحون كقراء القرآن والمؤذنون على كثبان المسك، وهذه الطائفة العاملة أصحاب الكراسى هم الذين يطلبون الشفاعة من آدم عليه السلام ونوح حتى ينتهوا إلى رسول الله ﷺ.

وقد جاء أن القرآن يأتى يوم القيامة فى صورة رجل حسن الوجه والخلق فيشفع، ويشفع الإسلام مثله فيخصم ويخاصم عن صاحبه.

وقد ذكرنا حكاية الإسلام مع عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – فى كتاب "الإحياء" بعد مخاصمته، فيتعلق به من شاء الله فيهوى بهم إلى الجنة، وكذلك تأتى الدنيا فى صورة عجوز شمطاء أقبح ما يكون فيقال للناس: أتعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من هذه؟ فيقال لهم: هذه الدنيا التى كنتم تتحاسدون عليها وتتباغضون فيها.

---

[١] هكذا فى الأصل، وفيه اضطراب شديد فى المعنى. اهـ. مصححه.

وكذلك يؤتى بالجمعة فى صورة عروس تزف، فيحدق بها المؤمنون ويحوط بهم كثبان المسك والكافور، عليهم نور يتعجب منه كل من رآه فى الموقف، فلم تزل بهم حتى تدخلهم الجنة.

فانظر إلى رحمة الله تعالى وَجُودِ لقرآن والإسلام والجمعة وكيف هم أشخاص: القرآن موجود جبروتى، والإسلام ملكوتى كالصيام والصلاة والصبر، لا يلتفت إلى من احتج فى تلاشى الأنفس عند الموت بقوله ﷺ يوم الخندق: «**اللهم رب الأجسام البالية والأرواح الفانية**»، فإن ذلك كله يحوج إلى العلوم، وقد نبهنا عليه فى غير هذا الكتاب وقصدنا الاختصار لسلوك طريق السنة، ولا يلتفت إلى البدع الطارئة على الشريعة من شياطين الإنس، فبشر المؤمنين بالرشاد وسلوك المراد نسأل الله العصمة والتوفيق بمنه وكرمه آمين.

وحسبنا الله ونعم الوكيل

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(تم بحمد الله تعالى)

الفهرس

الموضـــــوع	الصفحة
مقدمة	٣
فصل (لما قبض الله القبضتين.....)	٥
فصل (ثم إن الله عز وجل أقامه فى الدنيا.....)	٦
فصل (وأما الفاجر فتؤخذ نفسه عنفاً.....)	١٣
فصل (وأما الفاجر فيقولان له: من ربك.....)	١٩
فصل (وأما أهل القبور فعلى أربعة أحوال)	٢٢
فصل (فإذا أراد الله قيام الساعة دون النفخ فى الصور....)	٢٦
فصل فى الإقامة بين النفختين	٣٠
فصل (فإذا استوى كل أحد قاعداً على قبره.....)	٣١
فصل (فينادى الجليل جل جلاله: يا محمد ارفع رأسك)	٤١
فصل فى كيفية دعاء أهل الموقف.....	٥١

رقم الايداع بدار الكتب : ١٩٧٨١ / ٢٠٠٥